

اهداءات ١٩٩٩

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع

القاهرة

● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولار بالبريد الجوى .  
والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحواله بريديه غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال .  
وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

اسعار البيع فى البلاد العربية للاعداد العادية من سلسلة روايات الهلال فئة ٧٥ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا ١٨٠٠ ق . س - لبنان ٣٥٠ ليرة - الاردن ٥٠٠ فلس - الكويت ٤٠٠ فلس - العراق ١٦٠٠ فلس - السعودية ٧ ريال - السودان ٢٥٠ ق . سودانيا - البحرين ١٢٠٠ فلس - الدوحة ٨ ريال - دبی ٨ دراهم - ابو ظبى ٨ دراهم - مسقط ٧٥٠ بيسه - تونس ١٦٠٠ مليم - المغرب ١٥٠٠ فرنك - غزة والضفة ٧٥ سنتا - داكار ١٠٠٠ فرنك - اليمن الشمالية ١٣ ريالا - عدن ١٤٤ سنتا - الصومال ١٣٠ بنى - لاجوس ١٢٠ بنى -

فى حالة الرغبة فى الحصول على نسخ من روايات الهلال

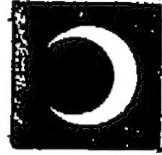
اتصل بالتلكس : 92703 HILAL . U . N

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة  
تليفون : ٢٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

تصدر عن مؤسسة  
دار الهلال

العدد ٤٦٨ ديسمبر ١٩٨٧  
ربيع الثانى ١٤٠٨ هـ  
No . 468 DEC . 1987

رئيس مجلس الإدارة  
مكرم محمد أحمد  
رئيس التحرير  
مصطفى نبيل  
سكرتير التحرير  
محمود فتاسم

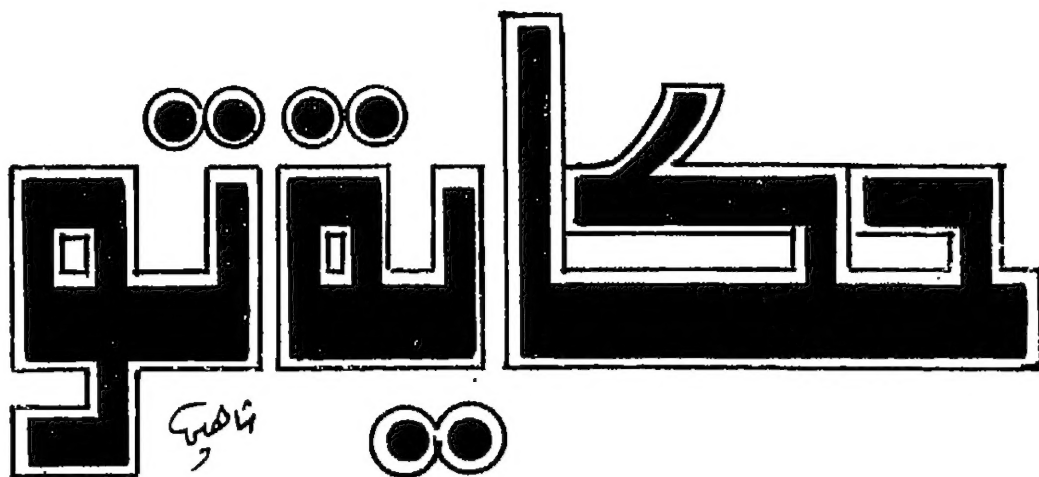


# روايات الهدى

---

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

الغلاف بريشة الفنانة  
سميحة حسنين



بمقام:  
فتحی عنانم

دارالهدای



## الفصل الأول

لا أدري كيف بدأ اهتمامي به ، ولكنني عندما أفكر في الأمر أكاد أجزم بأنني أنا الذي سعت إليه ، رغم أنني نصحت نفسي بالعذر منه ، فقد توهمت أنه قد يكون نصابا ، أو جاسوسا جاء ليتجسس علينا ، أو لعله أحد رجال المخابرات أو المباحث دخل النادي ليتتبع أخبار الاعضاء .. ومن بينهم كثيرون ، كانت لهم يوما ما علاقات بالسلطة ، واشتركوا في صراعات قديمة حولها .. ولكن رغم كل هذه الظنون ، وربما بسببها ، دفعني غريزتي الى الاقتراب منه ، فليست الفرائشة وحدها هي التي تحوم حول النار التي تحرقها .. أنك تجد نفسك مندفعاً نحو هذا الذي تحذر منه أو تخشاه بقوى مجهولة اكبر واقوى من أية مقاومة يجندها العقل .

لن أذكر اسمه الحقيقي ، ولن أجهد نفسي في البحث عن اسم مستعار له ، وهو نفسه استطاع ببساطة تامة أن يجعل الجميع ينادونه باسم من حرفين ومقطع واحد ، هو « تو » بضم التاء والواو .. « أهلا تو » ، « تعال يا تو » ، « كنت فين يا تو » .. وقد يستنتج البعض من ذلك أن اسمه الحقيقي « توفيق » أو « توكل » أو « تونى » الخ .. ولكنه استنتاج غير مضمون ولا معنى له . كذلك لن أذكر اسم النادي الخاص ، يكفي أن نعرف عنه حقيقتين ، الأولى أنه في الاسكندرية ، والثانية أن أبرز نشاط لاهضاء هذا النادي هو لعب البريدج ، وهم فخورون باللعبة ، ويقولون لك في زهو وكبرياء أن من بينهم خرج أبطال عالميون في البريدج .. وعندما انضمت الى ذلك النادي منذ سنوات قليلة حاولت أن أقنعهم بمزايا الشطرنج « لعبتي المفضلة » ولكنهم لم يقتنعوا بما أقول . وكان « تو » أحسن الذين قبلوا في البداية أن يلعبوا معي الشطرنج ، ومازلت أذكر المناسبة جيدا فقد كانت إحدى محاولاتي غير الحذرة للاقتراب منه . فانتهزت فرصة وجودنا مبكرين في النادي وحدثته عن الشطرنج ، فاستمع الى ، ثم لمعت عيناه فجأة وقال :

— أريد أن ألعب معك .

فسألته متحديا :

— أتجيد اللعب .

أجاب :

— لا أدري .. ولكنى أستطيع أن أجيدها اذا أردت فى وقت قصير جدا ..

فضحكت قائلا :

— أشك فى ذلك .. الا اذا كانت لديك مواهب نادرة .

فقال فى لهجة حاسمة ، تخلو رغم ذلك من الوقاحة المتوقعة فى كلمات التفاخر والزهو بالنفس :

— أنا فعلا لى مواهب كثيرة .

وجلسنا نلعب الشطرنج ، وأعترف أنه كان موهوبا حقا .. لا لأنه غلبنى ، ولكن لأنه أدرك بسرعة — وهذا شيء نادر بين من أعرفهم فى جيلنا من الرجال — أنه يحتاج الى بذل جهد غير عادى ليجيد اللعبة ، واتخذ قراره فى الحال ، رافضا أن يسقط فى هوة العناد كما يفعل فى العادة من يهزمون فى أية لعبة :

— لا .. هذه لعبة صعبة فعلا .. والطريقة التى تلعب بها تبين ذلك .. أنا لى أعبها الا اذا كانت هى الشئ الوحيد المتبقى لى .

قلت متحديا :

— منذ نصف ساعة فقط .. كنت تتحدث عن مواهبك .

أجاب بسرعة :

— فعلا أستطيع أن أجيد الشطرنج . ولكن ليس هذا هو ما أريده الان .

ثم أضاف باسم :

— ان الذى جذب انتباهى الى الشطرنج .. هو حكاية « كش مات » .

لأشك أنى أكون مسرورا عندما أقول لخصمى « كش مات » .

كانت عيناه تضحكان وهو يسألنى ما اذا كان هذا هو رأى أيضا ، وخطر لى فى تلك اللحظة أن أسأل عما اذا كان له خصوم يكرههم الى هذا الحد ، بحيث يريد أن يقتلهم ، أو يتمنى موتهم ، ولكنى لم أجروا على سؤاله ، فقد شعرت أن ما بينى وبينه لا يسمح لى بأن أتطرق معه فى الحديث عن أسرار حياته ، واكتفيت بأن قلت لنفسى ان «تو»

يفرح لموت الخصم ، وحمدت الله انى لست ذلك الخصم الذى يريد له الموت .

ووجدتنى أقول له :

— لعلك لا تحتاج الى رقعة شطرنج لتقول كش مات .

وهنا تغير وجهه ، واختفت الابتسامة تماما ، ورشقنى بنظرة طويلة ، قبل أن ينهض فجأة ، ليلحق ببعض الشبان ليلعب معهم البريدج .

كان وجود الشبان بهذه الكثرة فى نادينا ، وفى صالة البريدج بالذات ، ظاهرة جديدة علينا ، تضايق الاعضاء المسنين والمحاليين على المعاش ، وبينهم مرضى القلب والذبحة الصدرية ، الذين لا يستطيعون ممارسة أى شئ آخر فى الحياة ، غير لعب البريدج ساعتين فى اليوم ، والانغماس فى مغامرة المكسب والخسارة ، والفرح برؤية الخصم وهو يضع يده فى جيبه ويخرج محفظته ويفتحها بأصابع مرتعشة من الفيظ والانفعال ليخرج منها خمسين قرشا أو جنبها يدفعها للمنتصر . وبالإضافة الى هذه المغامرة الصغيرة كانوا يتمتعون فيما بينهم بتبادل الشتائم والتشنيعات بنفس الاسلوب الذى كانوا يتبادلون به مثل هذه الاشياء منذ أربعين عاما أو أكثر عندما كانوا طلبة فى الجامعة أو الثانوى ، وكان وجود السيدات المتقدمات فى السن لا يخرجهن ، وان كان يخفف بعض الشئ من الكلمات المبتذلة أو الجارحة ، انها متعتهم الوحيدة ، أو حريتهم الوحيدة المتبقية بعد الشوط المنهك الطويل الذى قطعه فى رحلة الحياة ، وكان أبرزهم فى سلاطة اللسان لواء شرطة متقاعد ، كان يتلفت حوله ثم يهتف بفرح « النسوان موش موجودين ياولاد » ثم يطلق سيلاً من الكلمات البديئة ، يكررها فى تلذذ ونهم . ويردد الكلمات والتأوهات الجنسية فى تكرار منغم نشوان كأنه مجذوب فى حلقة ذكر . وكان بين الحاضرين من الكهول من يخجل أو يفزع ، ولكن متعتهم بما يسمعون كانت دائما أقوى من الخجل أو الفزع . وتسمع أكثر من واحد يقول « اللواء زهدى بك مصيبة ولكن دمه خفيف » . ولكن الشبان — الاولاد الحقيقيين — ظهروا وتكاثروا وبدا اللاعبون يهتمون لغير سبب مفهوم بلعب البريدج . وفرضوا بوجودهم غير المرقوب فيه نوعاً من الوقار على الكهول اذ كيف يتبادل الكبار الشتائم ويتلذذون بالالفاظ الفاضحة ، أمام اولادهم ، أو اولاد اشقائهم . . وحاول بعض

أعضاء النادي استصدار لائحة جديدة تمنع « الأولاد » من دخول صالة البريد . وجلسوا يتحدثون عن السن المناسبة لدخول الصالة .. فوق الثامنة عشرة .. لا .. فوق الواحد والعشرين . حتى صاح فيهم أحدهم منبها إلى أن هؤلاء الذين تقولون عنهم أولاد ، بينهم متزوجون ، أعمارهم بلغت الثلاثين ، فصمتوا واجمين حتى صاح « رءوف علي » أحد مديري البنوك القدامى ، وقد أصيب بالذبحة مرتين :

— ولماذا لا يلعبون التنس أو الباسكت لماذا لا يتركوننا نلعب بالراحة والهدوء .. الواحد منا عندما كان في مثل شبابه ، كان لا يطيق أن يضيق وقته في صالة بريدج .. هذا حرام .

وقد تأثر بهذا الكلام « شكري منصور » وهو سفير سابق ، متمتة شديد الوقار في مظهره الخارجي ، ولكنه ينقلب إلى النقيض عندما يخلو المكان لأصدقائه الكهول وحدهم .. فيستمع إلى تأوهات اللواء زهدي في نشوة ، ويصيح بملء فمه « أنا أحب الهلس » .. والذي حدث هو أن السفير شكري ذهب إلى مائدة بريدج يجلس إليها ابنه « يسرى » مع بعض أصحابه ، وألقى عليهم محاضرة في خطأ وجودهم في هذا المكان ، ونظر يسرى ، وهو مهندس تخرج حديثا إلى والده ، وقال في هدوء قاتل :

— يا بابا لا تعطلنا .. اذهب واجلس مع أصحابك .

فانفجر الأب صارخا :

— أنا .. أو انت في هذا النادي .

وهنا حاول أحد أصحاب يسرى أن ينهض قائلا ليسرى في ارتباك .

— لا داعي يا يسرى .

ولكنه لم يكمل ، إذ خاطبه يسرى بلهجة قاطعة :

— اجلس أنت .. ولا تتدخل بيني وبين هذا الرجل .

واستدار شكري منصور ، ولم يعد إلى جلسة أصحابه ، بل اتجه مباشرة إلى الباب ، وخرج من النادي ولم يعد إليه حتى الآن .. وعقد جلسة بريدج خاصة في بيته ، تردد عليها البعض لفترة قصيرة ، ثم سلموا ، وعادوا إلى النادي فزعين ، وقد شاع بينهم خوف مبالغ فيه من هؤلاء الشبان ، أولادهم أو أحفادهم ، وكانوا يتهايمسون فيما بينهم من خطورة الأولاد وضراوتهم . حتى سرت بينهم أشاعة لا أدري

من هو مصدرها ، تفسر انقطاع « شكري منصور » عن النادي بحكاية غريبة تقول ان الاب احتك بابنه في البيت مرة أخرى ، فتجرا الولد وضرب أباه ضربا مبرحا ، اضطره الى الاستنجاد بشرطة النجدة . وأن « يسرى » قد هدد أباه بأنه سوف يضربه مرة أخرى لو رآه يذهب الى النادي أو يتردد على صالة البريدج . والرواية كلها غير معقولة ، ولكن السنتهم تناقلتها ، لتصور ما في نفوسهم من خوف ولا أقول كراهية للشباب حتى أنهم أصبحوا يخشون أن يحرمهم الاولاد من دخول النادي .

ولكن - تو - مقبول من الجميع ، في كلا المعسكرين ، الكهول والشباب ، رغم أنه شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين . وكانت أول مرة رأيت فيها « تو » في صالة « البريدج » منذ حوالي العام ، وأول ما جذب انتباهي الى وجوده هو صوته ، فقد ارتفع فجأة صوت سريع عصبي تتزاحم فيه الكلمات بطريقة غير عادية ، وكنت أجلس الى جوار رءوف على يحدثني عن ذكرياته في السودان عندما قطع سرده ، ملتفتا الى مصدر الصوت وزعق :

- خفض صوتك يا « تو » لست وحدك هنا .

فالتفت اليه « تو » باسماء وقال معتذرا :

- حاضر يا رءوف بك .. لا تغضب .. لكن ..

وانطلق « تو » يشرح من مكانه البعيد كيف أن زميله اخطأ في اللعب .. فقاطعه رءوف يائسا :

- اسكت يا أخى .. وجعت دماغى .

وسكت « تو » بعد أن قال وهو يتسهم :

- حاضر .

تأملت « تو » في دهشة : شاب متوسط القامة ، ممتلىء قليلا ، رأسه ضخيم ، يرتدى القميص الملون والبنطلون الشارلستون ، في شكله بعض البهذلة ، وشعره الاسود الغزير منكوش فوق رأسه ، شأن أغلب شباب النادي الذين يقلدون مايرونه في الافلام وصور المجلات لشباب العالم في هذه الايام .

قلت لرءوف معلقا :

- الشباب له أحكام .

فقال هامسا :

هذه قلة أدب .

قلت :

— ولكن هذا هو الشباب .  
قال وهو يقترب منى براسه كأنه يهمس بسر :  
— هذا الولد الصايع لا عمل له هنا .  
وأضاف الى معلوماتى ماشد انتباهى الى « تو » .. قال لى أنه  
ليس عضواً فى النادي ، وأنه يدعى أنه طالب فى السنة النهائية  
بكلية الزراعة ، وأنه رغم ذلك يأتى الى النادي كل يوم فى الصباح  
حتى المساء ولا عمل له الا ان يلعب مع اولاد الاعضاء ويكسب منهم .  
فسألته :

— أهو من الشبان الذين يقولون عنهم انهم عاطلون بالوراثة .  
قال :

— بالعكس .. انه فقير غلبان .  
فسألته فى دهشة :  
— وكيف دخل هنا .  
قال لى مؤكداً :

— سوف نجتمع ونقرر طرده ومنعه نهائياً من دخول النادي .  
قلت :

— وما الذى يمنع من طرده الان ..  
همس :

— يبدو أنه على صلة باللواء زهدى ، ويقال أنه قريب له .. على  
أية حال سوف نتفاهم معه قبل أن نتخذ قرارنا . وحدث أنى تركت  
الاسكندرية لبعض الوقت .. ونسيت كل شيء عن « تو » حتى عدت  
الى النادي بعد أكثر من شهر ، لافاجأ بوجود «تو» ، وقال لى رءوف  
بلهجة متفلسفة :

— لقد تصرفنا كالمجانين .. وقررنا تعيين « تو » فى النادي ،  
لقد كانت حكايته هى شغلنا الشاغل أثناء غيابك ، كانت فرصة  
لممارسة سلطاتنا التى افتقدناها فى التعيين والرفق ، فقررنا أولاً  
طرده والتنبيه على سعد المراقب بمنعه من الدخول حتى لو كان مع  
أحد اولاد الاعضاء .. وبعد أن اتخذنا القرار ، ارتفع أكثر من صوت  
يقول : حرام .. يجب أن نسامحه .. أو نبحت له عن وظيفة ..  
وطبعاً كان وراء هذه الأصوات اللواء زهدى ، فقررنا تعيينه معاوناً  
لصالة البريدج ، يشرف على نظافتها وعلى أوراق اللعب ونحجز

الموائد وكل هذه الامور .  
سألته :

— ومتى حدث هذا .  
قال :

— منذ يومين فقط .  
ثم أضاف ساخرا :

— المهم اننا مارسنا سلطاتنا القديمة وشعرنا بأننا قادرون على  
التعيين والرفق .

وهنا خطر لى ذلك الخاطر المفزع فهمست :

— ولكن الامر مريب .

فنظر الى بعينين فيهما دهاء الكهول وسألنى :

— ما الذى يربك .  
همست :

— ان تعيينه .. ليس مفهوما .. كذلك مجيئه الى النادى أول  
الامر .. لقد خطر لى وأنت تحدثنى الان .. أنه قد يكون فى الامر  
شئ .

فضاقت عيناه وقال باسم :

— طبعا .. لقد خطر لنا جميعا نفس الشئ .  
قلت :

— قد يكون جاسوسا علينا .  
فقاطعنى بلهجة تأكيد :

— أنا واثق أنه من المخابرات .  
فسألته مترددا :

— كيف تجزم بشئ كهذا .  
قال وهو يتلفت حوله :

— لست فى حاجة الى أن أجزم .. ان هذا هو شعورنا جميعا ..  
فبمجرد أن طرح اللواء زهدى فكرة تعيينه .. تهامسنا بأنه مطلوب  
تعيينه لهذا الغرض .  
قلت :

— ولكن زهدى على المعاش .

فأجاب وعلى شفثيه ابتسامة مأكرة :

— أمثال هؤلاء لا يتركون الخدمة حتى الموت .. لابد أن له دورا

فى عمليات المخابرات أو المباحث .. هذا شأنهم جميعا .  
وعدت أنظر فى اتجاه « تو » وفى صدرى مشاعر مختلفة من  
الفضول والحذر ، وأنا أحاول أن أجد فى مظهره ما ينبئنى عن حقيقة  
مخبره ، وأن كنت أعلم أن مثل هذه المحاولة ميثوس منها ، وجعلت  
افكر فى هذا الوضع الشاذ الذى يتعرض اليه « تو » ويقبله ، فهأهو  
يبدو ، أو يتظاهر ، وكأنه أحد الأعضاء ، وهأهو يختلط بالشبان  
الذين هم من طبقة اجتماعية أخرى غير طبقته ، ومع ذلك فالجميع  
يعرفون حقيقة وضعه .. وهو أنه ليس منهم .. وأنه ليس عضوا ،  
بل موظفا وأجيرا عندهم .. هل مثل هذا الوضع الغريب يصلح لرجل  
مخابرات ؟ لا أظن . ومع ذلك فالامر قير مفهوم تماما ، إذ لماذا يقبل  
« تو » هذا الوضع ، وهل هو مضطر اليه ، أو هو يتعمد أن يكون  
كذلك لغرض فى نفسه ، وخطر لى أنى ربما اكون قد ظلمته بهذه  
الهواجس ، فقد يكون واحداً من ذلك الشباب الغريب الذى لانستطيع  
أن نفهمه نحن أبناء الاجيال الماضية ، لعله واحد من تلك الطيور  
الغريبة التى تشق طريقها فى الحياة بوسائلها الخاصة المبتكرة التى  
لا تخطر على بال امثالنا .. أ تكون الحياة قد دفعت به الى هذا المكان  
كمحطة يستريح فيها بعض الوقت ، قبل أن يطير الى مكان آخر  
يعط فيه . حقا أن هذا النادى اشبه بالمحطة ، بعض من فيه كهول  
ينتظرون القطار المسافر الى الحياة الأخرى ، وبعض من فيه شباب  
يتسكع فى انتظار قطار مسافر الى فرص أوسع فى الحياة . على  
آية حال ، قررت بينى وبين نفسى أن أحذر من تو ، وأن أتعامل معه  
بحرص اذا شاءت الظروف أن نلتقى ولا بد أن هذه الظروف سوف  
تتأى يوما ما ، مادام كلانا يواظب على التردد على هذا النادى . ورغم  
حذرى وهواجسى وجدتنى أتبعه بعينى ، واكتشفت أنى أراقب كل  
صلة بينه وبين اللواء زهدى ، ولاحظت أن زهدى لا يتخرج فى أخله  
حريته وممارسة هوايته فى ترديد التأوهات والكلمات البديئة أمام  
« تو » رغم أنه لا يفعل ذلك أمام الشبان الآخرين .. فزهدى لا يشعر  
بحرج أمام « تو » ويعامله بكل تأكيد من مركز سلطة . وهو ما يعنى  
أن هناك علاقة ما بينهما .

وذات مرة ، وجدتنى ابتسم فى وجه « تو » الذى أقبل على  
يحيينى مرددا اسمى كأنه يعرفنى منذ زمن بعيد ، وسألنى عن رأى  
فى نظافة المكان ، وجدتنى عن اقتراحه بتغيير نظام موائد اللعب ،



وفقدت كل حذرى فسألته :  
- هل أنت طالب في كلية الزراعة .  
فأجاب على الفور :

- نعم .  
ثم أضاف بلهجة جعلتني أجزم بأنه لا صلة له بالزراعة أو كلية الزراعة ، أن التعليم الجامعى لا فائدة منه .. وأنه لايجبه ، ثم سألنى عما اذا كنت أعرف أحد مديرى فندق فلسطين ، فأجبته بالنفى ، فقال انه ذاهب الى هناك غدا ليلحق بالعمل هناك .. ثم عاد وصحح ما قاله ، بأنه ذاهب فى امتحان للوظيفة ، وأن له خلافاً تقوذاً قد أوصى عليه ، ولم يذكر لى اسم خاله ، وانطلق يتحدث بسرعة مضاعفة وبلهجة غلبها الانفعال عن مواهبه . وأجافته لثلاث لغات هى الانجليزية والفرنسية والايطالية ، وأنه يستطيع أن يعمل فى العلاقات العامة فى الفنادق ..

وقاطعته فى هدوء ، مخفياً تشككى فى صدق كلامه :  
- أرجو أن تفلح .  
فقال فى حدة غير مفهومة وقد تحولت كلماته الى ما يشبه اللعنة :

- كل شىء اتجه اليه .. كل عمل أرغب فيه تقف دونه العقبات .. ولكنى على أى حال مصمم على العمل هناك .. وإذا لم أنجح فى فلسطين فسأسافر الى القاهرة وأعمل فى شيراتون او الهيلتون ..  
قلت وأنا أتحصن بالكلام فى العموميات :

- أنا واثق أن اصرارك هذا سوف يجعلك تحقق كل ماتريد ..  
قال فى حماس اقرب الى أنفعال لا يستطيع السيطرة عليه :  
- ان الصعاب لن تمنعنى .. أنا عندى مواهب .. ولا بد أن أشق طريقى وأصل .

خيل الى فى تلك اللحظة ، أنه أشبه بممثل ردىء ، فقد راودنى احساس غامض ولكنه قوى ، بأنه يريد أن يخدعنى وأنه فقير صادق بالمرءة فيما يقول ، وان هناك ما يخفيه عنى .

ومع ذلك ، لم يبد منه ما يدل على أنه يريد أن يخدعنى أنا بالذات فأنا الذى كنت أندفع نحوه ، بينما هو مشغول عنى ، حتى شجعت نفسى على الاعتقاد بأنه يعتمد الابتعاد عنى لسبب ما أجهله تماماً .. ولاشك أن هذا البعد كان كفيلاً بأن يثير الطمأنينة فى نفسى ، فالأفضل

- منطقيا - أن أشعر بأنى لست محل اهتمام هذا النصاب ، أو الجاسوس أو رجل المخابرات ، أو أيا كان هو .. ولكن من قال ان النفس البشرية ترضى بمثل هذه الطمأنينة .. ان نفوسنا تقلق من أى ابتعاد عنها ، حتى ولو كان هذا الذى يعتمد مصدرا للخطر .  
ولعل هذا هو الذى دفعنى الى أن أتهور ذات مساء ، وبغير سابق تدبير ، فأنتهز فرصة خروجى مع اللواء زهدى من النادى ، وقبل أن يتركنى ليدخل سيارته ، اذا بالسؤال يخرج من فمى ليفاجئنى قبل أن يفاجئى زهدى :

- ماهى حكاية « تو » يا زهدى بك .  
ونظر اللواء زهدى الى نظرة طويلة غريبة . كانت عيناه تفحصاننى فى دهشة قبل أن يسألنى بصوت يحاول أن يكتم أنفعاله :  
- لماذا تسألنى هذا السؤال ..  
قلت مندفعاً وقد فات اوان التراجع :  
- انه يبدو لى مريباً .  
فصاح اللواء زهدى محذراً وبلهجة خيل الى أن فيها شهوراً بالالم .

- لا تجلب المتاعب بدون مبرر .  
قلت :

- المتاعب لمن ؟  
قلتها فى حدة ، وقد ظننت انى قد ظفرت أخيراً بشجاعتى ، وانى على وشك أن أصل الى ما أريد من طمأنينة حقيقية ، أعنى طمأنينة الفهم . وبدأ لى أن زهدى يوشك أن يتكلم .. كان ينظر الى وكأنه ينظر الى مجهول .

ولكن يبدو أنى أقدمت على تصرف غبى فى هذه اللحظة ، فقبيل أن ينطلق زهدى بكلمة ، تعجلته قائلاً :  
- فى الحقيقة انا لا أفهم شيئاً .  
وكان ماقلت قد جعل زهدى يفيق ويتيقظ فاذا بالحيوية تدب فيه فجأة ، ويضحك ساخراً ويقول :  
- هل أخذت كلامى على محمل الجد .  
قلت فى اصرار لا يخلو من غيظ :

- لن تتراجع الان .. لقد حدثتنى عن المتاعب التى يجلبها سؤالى .

فثبت نظراته فى عينى ، وقال وهو يضحك ضحكة جافة :  
- واى متاعب يستطيع ان يجلبها هذا الولد .. انه لاشيء على  
الاطلاق .

ثم اضاف بلهجة يصطنع بها اهتماما كاذبا :  
- هل ضايقتك فى شيء .

قلت بسرعة وقد عاودنى شعورى بالحذر :

- أبدا .. أبدا ..

فمد يده يضافحنى .. متمتما بكلمات اعتذار مقتضبة عسى  
اضطراره للانصراف فى الحال .. وركب سيارته وانطلق بها .

## الفصل الثانى

استبد بى الفضول ، فدفعنى الى محاولة الاقتراب من مجموعة الشبان الذين يلعبون البريدج مع تو . ولم أجد صعوبة فى ذلك ، فأغلبهم قد قرأ لى رواية ، أو سمع عني ، وقد يسألنى أحدهم سؤالاً أو سؤالين عن الادب أو اخبار الصحافة . ولكنى ما أكاد أفتح فمى لأجيب ، حتى أشعر بأن صاحب السؤال غير مهتم بما أقول فهو مشغول تماماً بأشياء أخرى غير التى أحدثه عنها ، وسرعان ما اكتشفت أن الصلة الحقيقية التى يمكننى أن أعقدها مع هؤلاء الشبان ، لن تعتمد على حديث الفن والثقافة ، بل تعتمد أساساً على سيارتى الإيطالية السريعة ، من طراز « الفاروميو » . فكنيت أتعهد الانطلاق بها مسرعاً لأجذب انتباههم الى سرعتها غير العادية وبالتالي أكسب اهتماماً أكبر بى . وهذا هو ما حدث فعلاً . فذات ليلة ، كانوا قد اتفقوا على قضاء السهرة فى بيت صديق لهم لا أعرفه ، وكانوا فى حاجة الى سيارة ثانية لتنقلهم الى بيت ذلك الصديق فى « رشدى » وبينما هم يتناقشون فى حدة .. حول من يركب سيارة « لطفى » وهو محام تحت التمرين يعمل فى مكتب ابيه المحامى المشهور بالاسكندرية ، ومن منهم يركب التاكسى ، اذا بى أنتهز الفرصة ، وأعلن لهم أنى على استعداد لأن أقدم لهم خدماتى . ورحبوا بهذا العرض ، وتحمسوا لركوب الالفاروميو ماعدا « تو » الذى ظل ساكناً ، بل كان اقرب الى الوجوم ، أو هكذا خيل الى ، وعندما هبطنا الى الشارع ، ذهب « تو » من تلقاء نفسه الى سيارة « لطفى » الفولكس ، وظل واقفا بجوارها ، كأنه امر مسلم به أنه سيركب تلك السيارة ، وأنه لا يعنيه فى قليل أو كثير أن يركب معى . وراقبته من خلف زجاج سيارتى وهو ينحسر بين اثنين فى المقعد الخلفى للفولكس ، ولا يحاول أن يلتفت ولو مرة واحدة ناحيتنا .

وما كدنا نتحرك ، حتى اندفعت « الفولكس » بسرعة غير عادية ، وبذلك أعلن لطفى أنه يتحدى سرعة عربتى . ولو كان ذلك قد حدث فى أى ظرف آخر ، لكنك ابتسمت ، وقلت لنفسى ، هذا طيش عيال ولكن الظرف الان مختلف ، فكل ما بينى وبين هؤلاء الشبان من صلة ،

لا يعتمد على احترام السن ، أو ما يمكن أن أسميه بمكانتي الادبية الى آخر هذا الكلام الذي لا يعنيههم فى شيء . ان المبرر الوحيد لوجود صلة معقولة بينى وبينهم ، هى فى قدرتي على الانطلاق بماكينه الالف روميو بطريقة باهرة تجعلهم يحترموننى بالقدر الكافى . انها لوثة أصابتنى وجعلتنى أفكر على هذا النحو ، ولاشك أن بعضا من طيش الهيال قد أصابنى ، بعد أن سعيت الى التعامل معهم ، والتصرف عليهم ، وعلى أية حال فقد أندفعت فى سباق جنونى فى طريق الحرية ، والفلوكس اللعينة ، تستفيد من حجمها الصغير ، وقدرتها على التسلل والافلات من محاصرة السيارات والاثوبيسات وعربات النقل بينما اعتمدت على وقفات اشارات المرور ، وقدرتي على الاندفاع بسرعة مائة كيلو بالحركة الاولى للسيارة ، وكنا على وشك أن نسبق الفلوكس عند مستشفى المواساه ، عندما سمعته يصيحون فى انفعال :

— تو يضرب لطفى كانه جوكى .  
فهتفت فى دهشة :

— تو ..  
قالوا :

— نعم .. انه سيموت من الفيظ لو سبقتاهم .

ولاشك ان هذه المعلومات اربكتنى ، فقد كادت حياتنا أن تنتهى فى تلك اللحظة وقد ظهرت أمامى فجأة عربة نقل واقفة بغير أنوار . وما كدت أتفادها ، حتى سمعت صيحاتهم بأنهم سبقونا ، وكانت يداى ترتعشان ، ثم امتدت الرعشة الى قدمى التى تضسفت على البنزين ، وأيقنت أن أعصابى قد أرهقت ، ورقم ذلك استولى على عناد أحقق ، فلم أخفف من ضغط البنزين ، واندفعت الالف بسرعة مخيفة ، وأنا لا أدري ما إذا كنت أسيطر على اندفاعها أم أنها تجرى بقوة مجهولة ، وسبقنا الفلوكس عند إشارة المرور فى الأبراهيمية ، ولا بد أنى خزقت إشارة المرور ، ولا بد أنى نجوت أكثر من مرة من موت محقق ، ولكن كل هذا كان يحدث وكأنه لا يحدث ، فلم أعد أعي ما يدور حولنى ، ولا أسمع الصيحات والنداءات ، كانت لحظات بلا منطق ، لا يحكمها حرمى أو حذر ، ولا يحكمها ثانون خارجى من اشارات حمراء وخضراء ، ورجال مرور ، وسيارات وأناس تعبر الطريق . الشيء الوحيد الحقيقى ، كان ذلك الحريق الهائل داخل موتور السيارة ، التى يندفع بها ، وذلك النبض الذى يرتجف به

كل عصب فى جسدى ، لاشك فى أن كل ذرة فى جسمى كانت فى قمة نشاطها ، وتوشك أن تنفجر كما تنفجر معها السيارة فى أية لحظة ولكن شيئاً لم ينفجر ، وما كنت لحظتها أستطيع أن أدرك ، وقد فقدت عقلى تماماً ، أن هناك شيئاً يوشك أن ينفجر ، وكل ما أذكره بعد ذلك هو أن السيارة وقفت أمام فيلا فى شارع جانبى ضيق متفرع من طريق الحرية عند رشدى . أذكر الشارع المظلم ، وصيحاتهم التى لا اسمع ولا أفهم ماتعنيه ، ثم أذكر وجوههم وهى تخاطبنى ، وهى تحمل وهجا فى العيون . ثم أذكر كيف بدأت استرد ذاكرتى ، وأفكر فى أن الفولكس سوف تأتى الآن فى أية لحظة . وأذكر أن كل ما كان يهمنى عندئذ ، هو أن أرى « تو » يهبط من « الفولكس » وأن أنظر فى عينيه ، وأنى سأتمتع فى لقاء النظرات بفرحة فوز ، وما كان يهمنى أن أراجع نفسى وأسألها عن قيمة هذا الفوز ، وهل هو فوز رخيص ، أم كبير . ولكن تشاء الظروف أن تلقننى درساً ، تعلمته كاملاً فيما بعد ، وكانت بداية هذا الدرس فى عدم وصول الفولكس وما أعقب ذلك من أحداث ، أن أتجملها ، ويكفى أن أسجل الآن ، أنى لم أحصل على ذلك اللقاء الذى توقعته مع تو ، ولم أحصل على فرحة الفوز . كانت قد مضت أكثر من عشر دقائق ، دون أن تظهر السيارة التى سبقناها وبدأ لنا شبح حادث وقع لهم ، ورغم أن هذا الاحتمال كان شبه مؤكد مع هذا التأخير ، إلا أن من كانوا معى لم يكثرثوا بالأمر ، أو على الأقل لم يقلقوا بنفس درجة قلقى ، وكان أهم ما يشغلهم اقناعى بالصعود معهم الى الفيلا التى لا أعرف أصحابها ، وأذعنت عندما قالوا لى : « ابق معنا حتى نسمع شيئاً عن أخبارهم فقد نحتاج الى عربتك مرة أخرى » .

فتحت لنا الباب فتاة مريحة لا يزيد عمرها على الثامنة عشرة ، وجهها صبور بلا ماكياج ، وشعرها بنى منسدل على كتفها كأسلالة من خام النحاس . ولها عينان سوداوان واسعتان فيهما بريق ينفجر بالشقاوة والعفوية ، ترتدى بلوزة صفراء ، وينظروننا رمادياً فضفاضاً أشبه بسر اويل جاريات هارون الرشيد ، أو هكذا قلت لنفسى ، مع انى لا أعرف على وجه الدقة ماذا كانت ترتدى جاريات الرشيد . وبعد برهة ، تبينت أن اهتمامى بهذه الفتاة لا يوجد ما يبرره ، فليس هناك ما يجزم بأنها من أصحاب البيت ، كنا دلفنا الى ضالة واسعة ، مزدحمة بالاولاد والبنات ، وتضج بالموسيقى ، وصوت توم جونز ، ولا أحد قدمنى لأحد ، ولا أحد يبدى أى نوع من الاهتمام بوجودى ،

فقضيت لحظات حرجة اعالج فيها مشكلة اهتمامى بنفسى ، وكنت اتحرك ببطء شديد ، ولا أدرى ما صلة عدم اهتمامهم بى ، بشدة اهتمامى بالآثار انتباههم . فهكذا كانت حالتى النفسية ، ووصلت أخيرا الى ركن احتميت به ، ثم فكرت فى أن اعود واسير بينهم ببطء لا اخرج هاربا من المكان . ولكن مثل هذا الخاطر لم يدفعنى الى أى نوع من الحركة ، وسمعتهم يتحدثون عن موسيقى « ألسوبر ساكس » وخطر لى أن أفعل شيئا ، هو أن أهديء من روعى ، وأن أرقب هذا الجيل من الشباب ، ولكنى لم أهذا ، وقد اختلطت امامى الوجوه والاصوات ، وتحولوا جميعا الى ما يشبه النقوش الصاخبة الزاهية فى سجادة فارسية ، انك لا تستطيع أن ترى مالا تعرفه ، وغربتى عن هذا الجو كانت تعينى تماما ، بل أقول انها أفقدتنى القدرة على الابصار ، فلا أستطيع أن أميز بين فتاة وفتاة ، ولا أستطيع أن أمارس هوايتى فى التعرف على الشخصيات كما أفعل بسهولة ويسر وأنا جالس مع أعضاء النادى من الكهول . أو عندما أذهب الى مقهى من مقاهى المنشية أو كامب شيزار . وقد بلغ بى الذهول أنى وجدت فى يدي زجاجة « كوكا » قدمتها لى إحدى البنات ، لا أذكر من هى ولا متى أعطتها لى ، فلا بد أن ذلك قد حدث بسرعة وبلا مقدمات ، وبلا كلمات من جانب من قدمتها وبغير انتظار لكلمة شكر من جانبى . كنت أحاول أن أبحث عن تلك التى أعطتنى زجاجة الكوكا . كمجرد عمل أشغل به نفسى . عندما ارتفعت صيحة :

— كلهم فى قسم البوليس .  
وقبل أن أفهم ما الذى يجرى ، كان أكثر من واحد يجذبنى ، لاذهب الى قسم البوليس : انهم هناك .  
وفى الطريق ، سمعتهم يرددون — لدهشتى — أن هذه ليست المرة الاولى وقال واحد منهم ساخرا :  
— تو له مزاج خاص فى دخول اقسام البوليس .  
ثم أضاف متفلسفا :  
— لابد أنه الآن فى قمة النشوة والسعادة .  
وخفق قلبى وأنا أسمع هذه المعلومات الغريبة ، وسألت محاولا كتم الفعالى :  
— وهل هذا مزاج ؟  
وانطلقوا يروون لى عن حكايات « تو » ذات مرة كان يسير فى الشارع قبيل الفجر بعد أن تركهم فى نهاية السهرة ، وحدث أن

اعترضه مخبر واستراب فيه . وكان ذلك في وقت شاع فيه ان  
بعض الجواسيس الاسرائيليين لهم نشاط خاص في الاسكندرية  
وطلب المخبر من « تو » بطاقة تحقيق شخصيته . فامتنع ، فلما أصر  
المخبر انهال عليه « تو » شتما ، انتهى بالتشابك بالأيدي ، ورغم تأخر  
الوقت تجمع بعض المارة ، واستطاعوا التدخل وفض الشجار  
وأخرج « تو » بطاقته وعرضها على الناس ، رافضا أن يقدمها للمخبر  
بدعوى أنه يشك في أنه مخبر حقيقي . وعندئذ أخرج المخبر بطاقته  
وأثبت للجميع أنه فعلا من قوة الشرطة ، ولكن « تو » تشكك في  
صحة البطاقة ، وفجأة قال « تو » للمخبر :

— هيا بنا الى القسم .

وهناك وأمام الضابط النوبتجي ، تصرف « تو » بنذالة غير متوقعة  
فقد اتهم المخبر بأنه اعترض طريقه وطالبه بنقود . « ودليلي يا حضرة  
الضابط أني لم أرتكب شيئا ، وهاهي بطاقتي معي ، ولا يستطيع  
هذا المخبر أن يتهمني بشيء . وأنا الذي طلبت منه الحضور الى  
القسم بعد أن هجم على وطلب مني عشرة صاغ . احميني يا حضرة  
الضابط من هؤلاء المخبرين المفلسين الذين تحولوا الى بلطجية » .  
وهنا سألت معترضا :

— ولكن كيف عرفتكم بهذه القصة ؟

قالوا ضاحكين :

— هو الذي رواها لنا .

قلت على الفور :

— ان خياله واسع .

ولكنهم رفضوا هذا التفسير . وشرعوا يعددون لي المناسبات  
التي تفوق الحصر والتي تحرش فيها « تو » برجال الشرطة . أحيانا  
كان يتحرش بهم في اندفاع جنوني . عنده ارتكاريا من البوليس ،  
يكفى أن يرى الواحد منهم ليتحول الى ثور هائج تلوح أمامه باللون  
الأحمر .

ورغم اقتناعهم الواضح بما يروونه عن « تو » ألا أني لم أصدق أن  
هذه هي الحقيقة . وأعترف أني سمحت لبعض الخواطر الصبائية  
أن تشغلني . فقد خطر لي أن « تو » يلعب لعبة غامضة . من نوع  
تلك الألعاب التي نراها في أفلام جيمس بوند ، فمثلا يمكن أن يتخذ  
احتكاكه بالشرطة كوسيلة للاتصال بهم بطريقة غير مكشوفة يتحايل  
بها على آخرين يراقبونه ويتشككون فيه . . . وأن حياته سوف تتعرض



للخطر لو أنه اتصل بالشرطة بأسلوب مباشر وعادى . ولكن سرعان ما بدا لى سخف هذا الخاطر ، وأنه لا يفسر لى سلوكه « تو » ولا يصل بى الى حقيقة أمره . ويبقى رغم ذلك ما أستطيع أن أؤكد له لنفسي ، وهو أن فى الأمر سرا . ومع ذلك ماشأنى به ، وما الذى يورطنى فى هذه الامور الصبيانية التى لامعنى لها . أن الاختلاط بهؤلاء الاولاد ليس وراءه الا البهذلة ، سباق جنونى بالسيارات فى الشوارع ، وحفلات راقصة صاخبة ، وأقسام شرطة . أليس الاجدر بمثلئ أن يحتفظ بوقاره ، وأن يعود الى أصحابه فى النادي . يستمع الى . . وهنا توقفت عند مشهد زهدى وهو يصدر تأوهاتة الجنسية . وكنا قد وصلنا الى القسم .

دخلنا حجرة الضابط النوبتجى ، وقد جلس الى مكتبه خلف حاجز قصير من الخشب . وقد وقفوا معهم « تو » الى الحائط بينما جلس لطفى المحامى تحت التمرين . وقد مننت نفسي الى الضابط ومن حسن حظى أنه عرفنى . وقسرت له سبب حضوري بقولئ « ولادنا فى النادي » فابتسم الضابط وقال وهو يتفحصنى :

— لعلك تكتب عنهم فى رواية .

قلت ضاحكا فى ارتباك :

— لو أفهمهم .

فقال :

— لا أظن أنه من الصعب على رجل مثلك أن يفهمهم . .

ثم أشار الى « تو » وقال :

— خاصة هذا الاستاذ .

وفوجئت بمشهد قريب . فقد صرخ « تو » صرخة مدوية ، فى

حدة انتحارية — ولا أجد وصفا آخر لها — وقال :

— أنا معترف بأنئ شتمته . . وسوف أشتمه . . أنا لا يهمنى شئ

. . لا أنت ، ولا وزير داخلئتك .

وأعجبنتى الضابط ، فى ذلك الموقف القريب ، فقد احتفظ بهدوئه

تماما ، وقال لئ هامسا والابتسامة لا تفارق شفئتة :

— أحسن عقاب لامثاله أن تفوت عليه غرضه . . ولكن مادمت

انت هنا ، فأرجو أن تقول لئ أنك سوف تهتم بعلاجه .

قلت فى دهشة :

— كيف ؟

قال الضابط :

— انه فى حاجة الى طبيب نفسى .  
وعرفت بسرعة ما الذى جاء بهم الى القسم ، لقد منعتهم اشارة حمراء — ربما نفس الاشارة التى اخترقتها — من مواصلة السباق وخيل الى « تو » أن رجل المرور يعتمد أن يتلصقا فى أعطاء النور الاخضر ، فصرخ بأعلى صوته شاتما رجل المرور ، الذى ترك الاشارة وتقدم من الفولكس وقال لمن فيها :

— موش عيب عليكم يا أفنديه يا متعلمين .  
فاذا « تو » يحاول أن يهجم عليه ، لولا أن منعه زميلاه من حوله ، وانتهى الامر بتصميم تو ورجل المرور على الذهاب الى القسم .  
قال الضابط هامسا :

— هذه حالة هيستريا واضحة .  
قلت له معتذرا :

— هذه أول مرة أعرف بها .

وعندما خرجنا من القسم ومضنا « تو » كانت نفسيته قد تبدلت تماما . كان فى حالة هدوء تام ، هدوء مابعد الماصفة ، وقد فاجانى رغم أن مفاجاته لتتأبىها لم تمد مفاجآت ، باعتذاره للضابط . وكانت الدموع تترقرق فى عينيه وهو يستدر ، مما أثار الشفقة فى نفسى ، وأثار نوعا من النظرات والبسمات الساخرة عند الآخرين ، وكنت قد نسيت تماما نظرة الفوز التى أعدتها للاقاه بها . أن لقاء نظراتنا على نحو انسانى فيه فهم متبادل ، وفيه معنى يدركه كلانا ، ما زال أمرا بعيد التحقيق . وكما قلت ، لم أكن أعرف فى ذلك الوقت ، أن ماحدث ، وما سوف يتلوه من أحداث ، كان بداية لدرس سوف أتعلمه كاملا ، حول معانى لقاء البشر ، وأهمية مايدور بينهم من سباق وتحديات ، وما يصاحب ذلك من تعرف على القيم والاحكام فى مواجهة الحياة والموت . ولكن مهلا ، فلا داعى للمجلة ، ولا للانسياق مع ماينتابنى مع هذه الذكريات من انفعالات . الذى جذب انتباهى بعد أن تقدمنا خطوات خارج القسم هو أن « تو » توقف ومد يده وأخرج بطاقته الشخصية وفحصها باهتمام ، وخيل الى أنه يعيد قراءة اسمه ، فقد تحركت شفاته . وعيناه مثبتتان على البيانات المدونة فى البطاقة . وأخيرا ظهرت على وجهه ابتسامة هادئة ، تميزت — هكذا خيل الى — بالم دفين كأنه يخفى سكيناً مدفوساً فى ضلوعه ولا يريد أن يعرف أحد منا بأنه مطعون بهذا السكين . ووجدتنى أقدم منه وأسأله باهتمام ساذج ؟

— هذه بطاقتك الشخصية طبعاً .  
فوجه الى نظرات مستسلمة . تشع بحزنا ، وقال وهو يقدمها الى :

— هي بطاقتي .. انظر .  
قالها كأنه يطلب مني أن أتأكد له . وهو طلب لو صح لكان غريباً ولا تفسير له ، فارتبكت ، ومع ذلك مددت يدي الى البطاقة ، كنت لا أستطيع أن أرد يده الممدودة الى ، وامسكت البطاقة ورددت في غير فهم :

— انها بطاقتك .

قال هامساً :

— وفيها اسمي .

وخيل الى أنه قد مضت برهة قبل أن يضيف بنبرة خاصة :

— وفيها اسم أبي وجدى .

قلت :

— أذن فهي بطاقتك .. لقد ظننت أنك تخشى أن يكون الضابط قد أعطاك بطاقة أخرى .

فنظر الى محققاً .. قبل أن يقول بصوت غريب :

— ليته فعل .

نظرت اليه ، كانت عيناه لا ترياني ، واختطف بطاقته من يدي ، وجرى الى السيارة الفولكس يلحق بهم .. واذا به يصيح :

— هيا تكمل السباق .

هتفت فزعاً :

— مستحيل ..

لم أعد قادراً على احتمالهم ، لقد شدوا اعصابي بما فيه الكفاية ، وبلغ بي الإرهاق حداً أصبح فيه من المحتمل أن أشرب قدحين من الينسون وأنا داخل فراشي حتى أنام .

ولم أنم ليلتها ، فقد شغلت باجترار ما حدث ، حتى سمعت آذان الفجر يتردد خارج البيت من مؤذنة الجامع المجاور . عندئذ لعنت الارق ، ولعنت الفضول ، وتذكرت ما قاله لي الضابط ، عن هذه الشخصيات . وبدأت أفكر من جديد ، هل هناك احتمال في أن يأتي يوم أعرف فيه السر .. سر « تو » . ثم اذا بي أسأل نفسي في حيرة وقلق . هل هناك سر على الاطلاق ، أم هي أوهام تراودني وتجعلني أتخيل أشياء لا صلة لها بالواقع ، وعندما وصلت أفسكاري

الى هذا الحد ، غلبنى النوم .  
وذهبت فى المساء الى النادى ، وانا اعرف انه لا مفر من لقاء  
حاسم بينى وبين اللواء زهدى . فلما وصل هجمت عليه ، وقلت له  
وقد اتخذت مظهرا حادا :  
- اسمع يازهدى بك . انت الوحيد الذي يستطيع أن يشرح لى  
الموضوع وأصله وفصله .  
ولم أتركه يتراجع ، فرويت له ما حدث فى قسم الشرطة وحالة  
الهيستريا التى أصابت « تو » . وكان يستمع الى ، ووجهه يتغير ،  
بل كان أحيانا يتقلص من الألم .  
وأخيراً ، جمل يتلفت حوله ، كأنه يختنق ويبحث عن نسمة  
هواء . . ثم جذبني من يدي قائلاً :  
تعال معي الى بيتي . . سوف أحكى لك كل شيء .

## الفصل الثالث

يسكن اللواء زهدى فى احدى عمارات « الازارطة » المطلة على ترام الرمل . . وهو يعيش وحده ، وقد تعود على ذلك منذ زمن بعيد منذ ان طلق زوجته التى انجبت له ابنه الوحيد حسن . ويقسولون فى النادى ان الطلاق تم والزوجة مازالت حاملا . على أية حال أنها قصة قديمة مضى عليها أكثر من ربع قرن ، وكان قد سبق لى زيارة زهدى فى بيته مرة واحدة ، ومن يومها قررت بينى وبين نفسى الا اكرر هذه الزيارة مهما كانت الاسباب . كان ذلك منذ حوالى عامين ، وكنت قد ذهبت الى النادى فى الصباح ومعى بعض الصحف الاجنبية لأقرأها ، عندما دخل زهدى ، ولم يجد أحدا غيرى من معارفه ، وكان مجيئه فى مثل هذا الوقت أمرا غير مألوف منه ، وجلس معى . وسرعان ما تبينت أنه متوتر الأعصاب ، لأنه قادم لتوه من الميناء بعد أن ودع ابنه حسن المهاجر الى كندا . ورثيت لحاله ، لأنى أعلم بالمحاولات اليائسة التى بذلها ليقنع « الولد » بالبقاء معه والعدول عن مشروع الهجرة . كان زهدى يملك أرضا خصبة بجوار كفر الدوار استطاع أن يحولها الى حدائق ، وكان يقول لأصحابه شاكيا : هذه الأرض دخلها السنوى لا يقل عن ثمانية آلاف جنيه ، ويعلم الله الدماء التى نزلتها والأعصاب التى أحرقتها ، لأجعل منها حديقة مشمرة ، ولن كل هذا ، اليس لأبنى حسن ، يرثها ويتمتع بها هو وأولاده ، ولكن هاهو يريد أن يتركنى ويترك الأرض والبلد ومن فيها ويهاجر . . هل سمعتم بشيء مثل هذا . لو كان فقيرا محتاجا لاقتنعت بهما يريد ، يسافر ويكافح ويشقى فى بلاد الله ليحصل على رزقه ، ولكن الرزق أمامه فلماذا يتركه ، لماذا يترك أرضه ، ليبعث من أرض أخرى لا يعرفها ولا يملك فيها قيراطا اليس هذا هو الجنون بعينه ؟

وكان أصحاب زهدى يرونه متجهما مهموما ، فيعرفون ان الولد مصمم على الهجرة ، وأحيانا يرونه مبتسما راضيا ، فيقدرون انه نجح فى اقناع الولد بالعدول عن فكرته ، وأحيانا كانوا يسخرون

من زهدى .. قائلين له : الولد له كل الحق فى أن يتبرا منك ، وقد يتجرا واحد منهم فيقول له وهو يتبادل معه الشتائم : وما أدراني أن هذا الولد ابنك لقد طلقت أمه من قبل أن تلده .. وكان زهدى لا يفضب من مثل هذه التعليقات الحادة ، بل يواجهها بأن يروى بالفاظ بذئنة ، كيف أنه واثق من تلك الليلة التى أنجب فيها الولد ، وقد يصفه أكثر من واحد من أصحابه بأنه .. متهما أياه بأنه مصاب بالشذوذ ، ولكن مثل هذه الاتهامات كانوا يتبادلونها جميعا فيما بينهم على طريقة أولاد المدارس . فهى لا تعطى اتهامات حقيقيا ، انها مجرد الفاظ وأسلوب يناوشون به بعضهم بعضا ، وذات مرة تحدث معى زهدى فى مشكلة ابنه ، وكان جادا ، يريد نصيحتى .. وكان مما قاله لى ، أنه عرض على حسن أن يعطيه مرتبا شهريا من جيبه فوق مرتبه كمهندس زراعى ، وأنه على استعداد أن يعطيه مائة جنيه فى الشهر ، وهو مبلغ كبير ، اذا قدرنا أن الولد يستطيع بعد ذلك أن يتزوج ، وهناك عشرات العرايس ، كلهن من بنات أحسن العائلات فى مصر . ولن ترفض واحدة منهن أن تكون زوجة له ، ولكن حسن رفض كل هذه المقترحات كأنه واقع تحت تأثير سحر يلقى قدرته على التفكير فى مصلحته ، ثم أضاف زهدى منفلا :

— هل تصدق ياسيدى ، أنى حاولت افساده ، قلت لنفسى ، ربما لو تعود على سهرات الكباريهات والبنات أياها ، فربما يتخلص من هذا العفريت الذى يركبه واسمه الهجزة ، ولكن لا فائدة ، أرسل خطابات ، وتلقى خطابات ، وملا استمارات حتى اضطرت الى التدخل واستخدام صلاتى لمنعه من السفر ، فما كان منه الا أن قاطعنى ، وسمعت أخيرا أنه قدم استقالته من عمله .  
وسألته :

— ولماذا تقف فى سبيله .. اتركه يفعل مايشاء .

قال محتجا :

— والارض .. ؟

قلت محاولا تهدئة روعه :

— سيعود اليها يوما ما .. ليس هذا هو المهم ..

فصاح فى ضيق لا يخلو من سخرية :

— وماهو المهم .. باذن الله .

أجبت :

— المهم هو أن تثق به .. والا تفرض عليه حياة أخرى غير التي  
تحلم بها .

ورفض تماما هذا المنطق ، وانطلق يحدثني عما يجب أن تكون عليه  
صلة بين الآباء والأبناء . الولد يرث أباه ويحمل رسالته من بعده .  
لولد مثل المال زينة الحياة الدنيا . والآب يملك ابنه ويتمتع بهذه  
اللكية كما يتمتع بماله الخاص . وإذا كنا سوف نموت يوما ما ،  
فلسوف نحيا في أولادنا ..  
وأذكر أنني قاطعته قائلا :

— أن الحياة التي تحملها أجسادنا الفانية ، هي ملك للحياة كلها ،  
أعني الحياة في جميع البشر ، ونحن لا نستطيع أن نحترق حياة  
خاصة بنا يتوارثها الأبناء والأحفاد إلى الأبد .. أن هذه الحياة  
الخاصة مرتبطة بأشخاصنا نحن ، ولابد أن تنتهي بوفاتنا .  
فزمجر زهدي :

— هذا كلام نظري تكتبونه في الروايات والكتب ، وأنت تقول  
لأنك أعزب ، ولو كان لك ولد لما قلت هذا الكلام الفارغ .  
وسكت باسمي ، فقد كان على وشك أن يشتمني بالفاظه البذيئة .  
ولكن لم تمض أيام حتى اعترف لي بأنه وافق على سفر الولد .  
وهكذا انتهى الصراع بينه وبين ابنه ، وهامى الصدفة تجمعني به  
وهو قادم لتوه من ذلك الوداع الحزين . وحاولت أن أسرى عنه .  
وفكرت في شيء أقوله يشعره بأني قريب منه ، فحدثته عن الصلة  
بين رجل الشرطة وكاتب الرواية ، وكيف أن كليهما عليه أن يسجل  
انطباعاته عن الناس ، سواء ما ظهر منها وما خفى بدقة شديدة ،  
وحدثته عن سومرست موم الذي استغلت المخابرات البريطانية موهبته  
كروائي ، ليكتب لها تقارير خاصة عن البلاد التي يزورها ، ولا شك  
أني أفلحت بعض الشيء في جذب انتباهه إلى ما أقول . وكنت واثقا  
في نفس الوقت أنه لا يفهم تماما ما أعنيه . وتأكد لي ذلك ، عندما  
شرع يحدثني عن كتب الأدب العربي القديم التي يقتنيها . وكيف أنها  
في مجلدات أنيقة اشتراها في مزاد أقيم منذ سنوات في قصر تاجر  
لبناني ثري في زيرينيا .. ثم دعاني في حماس مفاجيء إلى أن أذهب  
معه إلى بيته لأنه قرر أن يهديني هذه المجلدات .

فعجبت لحماسه المفاجيء ، وفسرته بأنه يريد أن يطمئن إلى أنني  
سوف أكون معه أطول وقت ممكن ، وأنه لا يريد أن يخلو لنفسه  
ليواجه ماتعانيه من آلام نفسية بعد وداعه لابنه حستن ، ثم خطر لي

.. ان الامر قد يكون افسح من ذلك ، فهاهو بلا وعى منه ، يريد ان يتخلص من بعض مقتنياته التي كان لابد ان يحرص عليها لو كان حسن معه ، يرثها منه ، ويضعها في مكتبته ليستفيد منها اولاده واحفاده . على اية حال ذهبت يومها معه الى بيته في « الازارطة » ، وعندما دخلنا العمارة في طريقنا الى المصعد ، مررنا بشقة بابها مفتوح ، وقد وقفت خارج الباب ، امرأة ضخمة ، هائلة الجرم .. بدينة ، شعرها مخضب بالحناء ، وكانت تتحدث بصوت خافت مع رجل ليبي يكشف جنسيته غطاء رأسه وملابسه الخاصة ألبىضاء ، وما كادت المرأة ترانا حتى رفعت عقيرتها ترحب بزهدى ، وكان صوتها أجش يفضح حياتها المريية .

ومعجبت للتحول المفاجيء الذي طرأ على زهدى ، فقد انقلب بفتة الى رجل مرح سليط اللسان ، يخاطب المرأة بكلماته البديئة . وقال لها ، وقد أمسك بذراعى ، أنه سيحاول ان يجعلنى واحدا من زبائننا ، وقالت له المرأة وهى تتمايل رغم ضخامة حجمها ، وبلهجة فيها دلالة مبتذل ، انها لا تفهم ما الذى يعنيه ، فزعم لها زهدى انى احد المفرمين بها شخصيا .. فأطلقت المرأة ضحكة عالية ممطوطة ألقت الفزع فى قلبى ، وقالت كلمات يفهم منها أن أيامها مضت ، وكانت تتفحصنى وهى تتحدث بعينين فاجرتين ، بينما وقف الرجل الليبى يرقب المشهد فى صبر يوشك أن ينفد ، وفجأة جذبنى زهدى ، ومضى بى مبتعدا الى المصعد ، وكأنه فرغ من طقوس لابد أن يؤديها ، ولا يتوقع من ورائها شيئا ، ولا تتوقع المرأة من ورائها شيئا .. كأن اكون أحد زبائننا فعلا .

وقال لى زهدى وهو يفتح باب المصعد :

— ألا تعرفها ؟ منيرة بيعو .

قلت :

— سمعت اسمها يتردد بينكم .

قال :

— أشهر امرأة فى الاسكندرية .

كانوا يعرفونها ، وأحيانا يأتى أحد الاعضاء الى النادى ، وما يكاد يظهر حتى يختفى ساعة أو ساعة ونصفا على الأكثر ثم يعود . ويسأل بمجرد دخوله اذا ما كان أحد قد سأل عنه فى التليفون ، وعندئذ يعرف الجميع ، أنه قادم من مغامرة بسيطة ، لقاء سريع ، وأنه قال لاهل بيته أنه فى النادى ويريد أن يطمئن الى أن زوجته لم تسأل عنه اثناء غيابه . . ولذلك غالبا مايقابلون العائد من المغامرة مهللين :



التليفون سأل عنك . فيصيح فيهم غاضبا .. ياولاد الكلب ياكدابين .. ولكنه يقلق ويضطرب حتى يقسموا له أن أحدا لم يسأل عنه ، أما اذا وقعت الواقعة وسألت الزوجة اثناء غيابه فالكل يتكاتف فى مواجهة الموقف ، لقد نزل ليودع أحد الضيوف الأجانب ، وسوف يصعد حالا ويتصل بك .. أو .. لقد كان موجودا هنا منذ دقيقة واحدة ولا ندرى أين ذهب لعله فى التواليت .. سوف نخبره ليتصل بك .. وهكذا تتلقى الزوجات اجابات التسوييف والمالطة ، حتى يعود الفائت ، فيجربى لاهثا الى التليفون .. ويأجيببتى تصورى أنى كنت فى المكتبة ولم ينتبه أحد الى البحث عنى هناك . وأحيانا ، كانوا يستقبلون العائد من المغامرة ، بسؤال قصير .

يسأل السائل :

— أزيها ..

ويجيب العائد :

— كويسة ..

ولكن مثل هذه المغامرات ، كانت تقع فى فترات متباعدة ، وقد تمضى شهور قبل أن يحدث شيء من هذا القبيل . وذلك طبيعى بحكم السن ، وظروفهم الاجتماعية . ولاشك أنهم كانوا يطمئنون الى منيرة بيجو ، لأنها كانت تتمتع بما يشبه الحماية من زهدى . ومع ذلك فلا بد أن اعترف بأن معلوماتى عن هذا الجانب من حياة هؤلاء الكهول من أعضاء نادينا ينقصها الكثير ، وهى لا تعدو سماع القفشات والتشنيعات العامة ، أما تفاصيل مايجرى من اتفاقات ومواعيد فكان يتم همسا وسرا ، ولم أهتم بأن أعرف عنه أى شيء ، حتى جاء ذلك اليوم ورأيت فيه منيرة بيجو بلحمها وشحمها ، وهامى تعود الى حديثها مع الرجل الليبى بينما يرتفع المصعد بنا الى الطابق السابع وأنا أرقب ذلك التحول الحاسم الذى طرأ على زهدى ، لقد نسى تماما هجرة ابنه حسن ، واصبح من المؤكد أنه فى غير حاجة الى وجودى معه لاسرى عنه ، لقد انطلق يثرثر وقد التمعت عيناه بفرح مبتذل وحشى ، عن كفاءة تلك المرأة منيرة وقدرتها على لقاء عشرات الرجال ، وكسب عشرات الجنيهاات فى اليوم الواحد . امرأة تعجبك ، أجدع من كل الرجال الذين ليسوا رجالا .. ما الذى لديهم يتباهون به .. هذه الديول التى تتدلى من بين أفخاذهم ليتبولوا منها .. كان سليطا بذيئا . وكنت أشعر بحرج شديد لانى لا أعرف كيف « انسجم » معه فى هذا المجال الذى ينطلق فيه ، وكنت أدرك من

تجاربى مع هذا النوع من الرجال ، أنهم عندما يتدققون فى الكلام  
البدىء .. ممتزجا بانفعالات عاطفية ، فلا بد أن تبادلهم بذاءة ببذاءة  
وتشاركهم هذا الابتذال متخليا عن أى حاجز تفرضه تقاليد أو تربية  
أو ثقافة أو خجل طبيعى .

إذا لم تستطع أن تدوس على كل هذا ، وتندمج معه ، فسوف  
ينقلب ضدك حتما ، ويهاجمك بشراسة . أنه لا يحتمل أن تتخلى  
عنه فى هذا الموقف الذى يتعرض فيه من كل القيم ، أنه لا يطيق أن  
تتفرج عليه ، أو تتعالى أو تنفر أو تخجل أو حتى ترتبك ، ولذلك .  
فان نجاتى من تلك الحالة الخطرة التى انتابت زهدى كانت أشبه  
بمعجزة . وربما ساعد على ذلك ابتسامتى التى ثبتها على وجهى ،  
والقهقهة التى كنت أفتعلها ، ولكنها كانت لحظات عصيبة . قررت  
بعدها الا أكرر مثل هذا اللقاء المنفرد بزهدى مهما كانت الدوافع  
والاسباب .

كانت شقة صغيرة ، تبدأ بصالة كبيرة ، تجمع بين مائدة الطعام  
وفريجيدير وبوفيه ، وتشغل بقية المساحة كنية ستوديو خضراء  
ومقعدان فوتيل مكسوان بالقטיפه الحمراء بينهما منضدة عليها  
راديو قديم ، وفى ركن بجوار نافذة ، جهاز التليفزيون .

وكانت هناك بالطبع ، المكتبة التى جئت من أجلها ، ضحكت  
فى سرى لمنظرها ، فقد كان خيالى قد رسم فجأة صورة لمسكبة  
ضخمة ، تحوى مجلدات ومجلدات لعيون الادب والشعر العربى ،  
ولكنها كانت درابا صغيرا ، حقيرا ، ظهرت فيه خمسة مجلدات  
حمراء ، لاجزاء متفرقة من الاغانى للاصفهانى ، وحيوان الجاحظ ،  
وصبح الاعشى للقلقشندي ، وكنت قد اقتربت من هذه السكتب  
وعبرتها بنظرة سريعة ، لاوجه اهتمامى - كما يجب فى مثل الحالة  
التى كنت أعانى منها - الى مجموعات من مجلات الصور العارية ،  
ووجدتنى أقول لزهدى فى محاولة ساذجة لارضائه والاندماج  
معه .

- هذه المجلات هى المهم ، لاكتب الادب يا جنرال .

وقضم الطعم بسهولة . فقد فرح وصاح منذرا وقد أخذ  
كلماتى على محمل الجد :

- هذه لا أفرط فيها .. أنا أستخدمها .

واتى بحركة بذيئة .

قلت وأنا مزهو بالتمثيلية الصغيرة التى أقوم بها : - ولو مجلة

واحدة ..

فأخرج صوتا منكرا وقال :

— أبدا .. ولا واحدة ..

فتظاهرت بخيبة آمل . وقلت وأنا أشير الى المجلدات الحمراء :

— امرى الى الله . يكفينى هذا الجزء من حيوان الجاحظ ..

فنظر الى مستريبا وقال : — لماذا ؟

قلت : لان به قصصا عن العلاقات الجنسية بين الحيوانات .

فضاقت عيناه هاتفا :

— ولا هذا أيضا ..

ثم ضحك فى شراسة وأضاف :

— هل صدقت انى أعطيك شيئا من هذه الكتب .. هل تظن انى

عبيط .

قالها وكأنه يقرر أنه يملك اثمن كتب فى العالم .

ثم أضاف :

— ولكن .. سوف أقدم ماهو أهم .. ستتناول طعام الغداء

معى .

وأخرج من الفريجيدير بعض الاواني الالومنيوم ، وساعدته فى

حملها الى المطبخ ليتولى تسخين الطعام ، وعرفت أثناء ذلك أن تلك

المرأة البدينة « منيرة بيجو » هى التى تعد له طعامه مرتين فى الاسبوع

وترسله اليه ليحتفظ به فى الفريجيدير ، وانطلق يشكو منها ومن

سرقاتها . انظر كم هى سمينه .. من أكلى الذى تنهبه .

ثم أضاف بلا أدنى حياء :

— انها أغنى منى .. ولو كان أحد غري لكان أخذ منها ، لا أن

يتركها تسرقه .

قلت له : لعلها تريد أن تتزوجك .

فصاح ضاحكا : لا .. تسرقى أحسن .

ثم قال : عيشة وسخة بنت شر .

وقد ردد هذه الجملة بعد ذلك أكثر من مرة ، وكأنها شعار أو

مبدأ ، وعندما ذهبنا الى المائدة ، هاجمنى المقص ، ربما بسبب قلقي

وخوفي منه ، وربما بسبب معرفتى أيضا ، أن تلك المرأة البدينة

الفريية هى صانعة الطعام الذى نأكله ، وكان لابد أن أتظاهر أمامه

بأنى مقبل على الطعام ، ولكنى تحصنت أيضا باعلانه انى أتبع ريجيما

خاصا يمنعنى من الأكل إلا بمقدار ضئيل .. ملعقة واحدة من

المسقة .. وملقعة ارز .. وقد أصبح كل همى هو أن أسرع  
بالانصراف هارباً من هذا الكابوس ، لانهى صلتى به ، ولا أعود  
اليه أبداً .

واستطعت بالفعل أن أنصرف فور الانتهاء من الغداء ، رغم أنه  
الح فى أن يحضر لى بيجاما واستريح على الكنبه الستوديو ، فاعتذرت  
لانى على موعد مع قريب قادم من القاهرة . كان استمرار مواجهتى  
لابتذاله أمراً فوق طاقتى ، قد احتمل البقاء معه ساعة أو ساعتين  
.. ولكن أعظم ممثلى العالم يعجز عن الاستمرار فى أداء دور مرهق  
طوال هذه الفترة وهو واقف على خشبة المسرح وحده .

وجاءت لحظة الانصراف ، وكان زهدى واقفاً يودعنى عند  
الباب ، عندما تفجر الموقف الانسانى الوحيد بينى وبينه ، فقد تجهم  
وجهه ، وبدأ عليه الألم ، وكان قد أمسك بىدى يصافحنى ، فظل  
متشبهاً بىدى يضغط عليها بكفه ، كأنه يعتمد عليها ليحتمل ألما يشعر  
به ، وارتعشت شفتاه ، وهو ينظر فى عيني نظرات متوسلة ، نظرات  
ضائعة .. وقال بصوت متحرج :

— أتدري لماذا هرب الولد .

نظرت اليه فى دهشة . وراعنى أن عينيه يلتقيسان بعينى ،  
فيتشابهك العيون أو لعلها تتعانق ، وسمعتة يقول كالمخاطب نفسه :  
— يجب أن أواجه الحقيقة .. أنا أعرف .. الولد يكرهنى .  
لم أستطع أن أنبس بكلمة ، بينما عيناه تتوسلان الى أن أسعفه ..  
بماذا أسعفه ؟ لا أدري .

وهمست :

— ما هذا الكلام يازهدى بك ..

بدأ وكأنه عجوز فى المائة .. وجهه المربع مكرمش ، وفسكه  
العريض ، هابط متدل .. وعيناه تتسعان لان الجفون تتهدل .. كل  
شئ فيه يبدو وكأنه يساقط .  
وهو يقول :

— الولد يكرهنى موت .

قلت متعمداً أن تكون لهجتى حادة .. لعل حديثها تدفعه الى  
التماسك ..

— كلام فارغ ..

قال هامساً : كأنه يبحث عن كلمات ضائعة :

— أنا أعرف ..

وقبل أن أفتح فمى .. رفع عينيه .. حولهما هالات زرقاء ..  
وقال فجأة .. وعيناه كأنهما لا تعرفاننى .  
- مع السلامة .

وأغلق الباب ، وكأنه يطردنى أو يهرب منى ، واتجهت الى المضعد  
وأنا مرتبك ، وقبل أن أدخله ، رأيته وقد فتح الباب ، يخرج هاجما  
على وهو يصيح .  
- أنت لم تأخذ معك الكتب .

وجدبنى من يدى ، وكأنه لم يرفض أن يعطيها لى منذ قليل .  
كان مصمما على أن أدخل الشقة ، وأحمل معى ما أريده من  
مجلدات . وكان لابد أن أفعل شيئا . وهكذا مددت يدى وجذبت  
أول مجلد ارتطمت يدى به . ولم أعرف أنه الجزء الرابع من صبح  
الاعشى للقلقشندى حتى وصلت الى الشارع ، ومررت بباب شقة  
« منيرة بيجو » دون أن أنتبه اليه ، أو أتذكر وجودها . كنت منفعلا  
بتلك اللحظات القصار التى التقت فيها عيوننا ، وهو يقول لى « ابنى  
يكرهنى » .. كان صادقا . أعنى كان يشعر فعلا أن ابنه قد هاجر  
صباح ذلك اليوم لأنه يكرهه ، وهو اعتراف ليس هينا ، ويحمل فى  
طياته مشاعر من الألم تكفى لان تغسل وتطهر كل مافى نفس زهدى  
من ابتذال وبذاءة . بدا لى أنه يحتفى بالبذاءة ، مما فى نفسه من آلام  
لا يحتملها البشر عادة .. كانت هجرة ابنه موتا من نوع غريب ..  
انفصالا بين الاب والابن .. قضى على كل ماعاش به زهدى من قيم  
وتقاليد .. ابنه لن يرثه .. ولن يكون استمرارا له من بعده ..  
لا أرث ولا استمرار . بل انفصال وبتر .. وعلى زهدى أن يلقي  
بكل حياته فى القبر الذى سيحتوى عظامه بما فيها من دود ينخرها ،  
أو يفهم فى عمر متأخر - يكتن من المستحيل أن يتحقق فيه أى  
من الفهم الجديد - أن حياته سوف تصب فى كل البشر .. كما يصب  
الرافد الطمى فى النهر وكما يصب النهر فى البحر ، ويصب البحر فى  
المحيط ، وتذكرت أن أصوغ هذه الجمل والكلمات فى رأسى حتى  
أواجه زهدى وهو يتهمنى بأن افكارى نظرية .

وفى مساء ذلك اليوم ، حفلت أخبار سفر حسن زهدى الى  
أعضاء النادى . وكان زهدى قد تأخر ، وبدا أنه لن يحضر تلك  
الليلة ، ورويت لهم فيما يشبه التشنيع الذى يفرحون به ، ذهابى  
معه الى بيته ، وتناولى الغداء معه . ولقائى بمنيرة بيجو ، فضحكوا  
وقال رعوف على ساخرا :

- أنصحك بالابتعاد عن هذه المرأة والا ابتلعتك ..

فسألته متخابثا : وهل بلفتك انت ؟  
قال رافعا يده : أنا عندي القلب .  
فصاح أكثر من واحد :  
— منيرة بيجو .. كانت السبب ..  
وقال آخر :  
— أيامها كان اسمها منيرة فوردي .  
وعند خروجي أنا ورعوف من النادي ، قلت له ، وأنا مازلت أفكر  
في زهدى :  
— ولكنه بكل تأكيد حزين ، وهو يتالم كان ابنه مات .  
قال وعيناه تضيقان :  
— سوف ينسى كل شيء .. انه فاجر .  
كانت مثل هذه المعلومات ، معلقة في رأسي ، بلا قيمة ولا أهمية  
لها بالنسبة لي .. حتى ظهر « تو » في النادي .. وبدأت المس تلك  
الصلة الغامضة بينه وبين زهدى ، وهي التي فسر لها أعضاء النادي  
همسا ، بأنها صلة تخابر أو شيء من هذا القبيل ، إلى أن وجدتني  
ذاهبا مرة أخرى إلى مسكن زهدى في الأزاريطة لاستمع منه إلى  
أصل حكاية تو .. وكنت بطبيعة الحال أتوقع أن يكون مايقوله لي  
كذبا في كذب ، وما كان هذا ليدهشني ، كان الذي يدهشني أكثر ،  
هو اندفاعي بلا مبرر ، وبلا أي هدف . وراء فضول ملح لان أصرف  
عن « تو » مايطفيء هذا الفضول .

## الفصل الرابع

عندما سمعت اللواء زهدى يقول لى انه قتل والد « تو » لم أفهم او على الاصح لم اسمع مايقوله . فقد اصابنى الدهول ، او لعلى احتميت به ، من بشاعة ما اسمع . ومع ذلك كان على أن أواجهه ولكن بعد مرور بعض الوقت . وخلوت الى نفسى فى احدى الليالى ، واذا برعشة تسرى فى جسدى ، وصوتى يرتفع غاضبا صارخا ، ما هذا الذى سمعته ، وتبينت ليلتها ، أن شيئا ما قد أصابه العطب فى نفسى ، ولا أدرى كيف أعالجه ، وقلت لنفسى ، لو قد أصبت فى حادث ، أثناء ذلك السباق المجنون بين السيارة التى أقودها والسيارة التى كان يركبها « تو » وتهشمت لى ساق ، و تكسرت ضلوعى ، لكان الامر أهون ، فهناك أطباء ومستشفيات لعلاج مثل هذه الاصابات اما اصابة النفس ، ومواجهة العجز والعطب فيها فأمر لا أدرى من يعالجه ، واين أعالجه ، أن الاضطراب يسيطر على تماما كلما تذكرت تلك الليلة التى ذهبت فيها مع اللواء زهدى الى بيته لاسمتع منه الى حكاية تو . وأنا الآن أفهم تماما قوله لى عندما سألته أول مرة « لا تجلب المتاعب بدون مبرر » ، كان يجب على ألا أتجاهل صيخته المحذرة ، أو لهجته التى شعرت فيها بنبرة الم . ولكن كيف كان يخطر ببالى أن هذا الفضول الاخرق الذى جعلنى أجرى وراء « العيال » ، سوف ينتهى بى الى ما انتهيت اليه . ان الاضطراب يعاودنى الآن ، وأنا أحاول إعادة تسجيل مارواه لى اللواء زهدى ، وهناك قوى فى داخلى لا تريد أن تسعفنى ، قدرتى على التذكر تتخلى عنى ، قدرتى على الصياغة تتشتت ، واوجع فى بطنى تهاجمنى ، ولذلك . أرجو أن يعذرنى من يتتبع هذه الحكاية ، ويقدر موقفى ، فيرضى بأن أقدم له مسودة كتبتها لنفسى فى مناسبة سابقة ، ومن حسن الحظ أنى لم أمزق أوراق هذه المسودة ، وقد بحثت عنها طويلا حتى وجدتها فى ثنايا مجلد « صبح الاعشى » الذى كان اللواء زهدى قد أهده لى فى زيارتى الاولى لبيته . . . وكنت قد كتبت تلك الاوراق لانشرها ، ولكن فى محاولة منى لمعالجة ذلك التشويه النفسى الذى اصابنى خيل الى وقتها أن الكتابة قد تساعدنى على الشفاء ، أو لعلها قد تكشف لى عن طريق للخلاص مما أعانى منه ، ولكن هيهات ، فالامر أفدح بكثير من أن تعالجه كلمات على ورق . وعلى أية حال ، هاهى المسودة ، كما عثرت عليها ، أنشرها

وانا لا اذكر تماما ماهو مدون فيها ، اذ انى لم اقو على مراجعتها او تصحيحها ، فكلما هممت بقراءة السطور الاولى اصابنى دوار .

## المسودة

يجب ان اعالج نفسى ، يجب ان اتخلص بسرعة من هذا الاحساس المخيف بالعجز . وقبل كل شيء ، يجب ان افهم بدقة ما الذى حدث ، ما الذى قاله لى اللواء زهدى فى بيته . المجرم الوجد يقول انه قتل والد « تو » ، وهذا الاعتراف فى حد ذاته يحيرنى ، مامعناه ، وما الذى دفعه لان يقول انه قتل ، هلك هو نوع من الزهو بأنه أشرف على عملية القتل ، أهو تانيب ضمير ، أهو خوف بدأ يساوره فى نوايا « تو » نحوه . بعد ان سمع منى قصص تحديه لرجال الشرطة . على أية حال ، ان كل هذه المشاعر المتضاربة ، أو التفسيرات المتعارضة ، هى نوع من الرفاهية اذا ما قورنت بما أشعر به . الذى أواجهه الآن بمنتهى البساطة ، هو ان الرجل صاحب المبدأ يقتلونه فى هذا البلد الذى أعيش فيه بصفتى كاتباً ، ثم أسمع تفاصيل قصة قتله ، فأخاف ولا أجرواً على أن أزعق بأعلى صوتى ، وان أعمل بكل قواى لواجهه الجريمة وأطارد المجرمين . اكتفيت بمطاردة ابنه فى سباق طائش بالسيارات . انى أختنق ، لان الهواء ينقصنى ، فهانذا أفتح كل نوافذ البيت ، ومنظر البحر يمتد أمامى الى نهاية العالم ، وأنوار مراكب صيد « المياس » تملو وتهبط ، ولكن الذى ينقصنى هنىو الافكار ، أو العزيمة ، أو الفهم ، أو فى الحقيقة ان الذى ينقصنى الى درجة الاختناق ، هو كل هذه الاشياء التى بغيرها لا يكون الانسان انساناً ، ما الذى فعلته بثقافتى ، ما الذى وصلت اليه بأدبى ، هل انا انسان شاذ ، وزهدى هو الرجل الحقيقى ، ببذآته ، وفجوره ، وقدرته على الاعتراف بالقتل الذى أشرف على ممارسته بالفعل . يجب ان اكف فوراً عن هذا الهراء الذى اكتبه ، الافضل ان أعامل هذه المصيبة ، بعقل بارد كما لو كنت ألعب دور شطرنج . نعم يجب أن أبدأ بوضع القطع فى مكانها من الرقعة ، وأرى كيف تحركت . وأدرس الموقف بدقة وعناية ثم أقدم على النقلة الصحيحة التى يكون فيها التصرف السليم ، والمهم هو أن أجذ النقلة الصحيحة ، والا ضعت ، فهذه فى الحقيقة ليست لعبة شطرنج ، انها لعبة الحياة والموت ، هيا تشجع واكتب المعلومات ، واجهها ، اقرأها واجعلها



تفقاً عينيك ، وإذا لم تتحمل هذه المواجهة ، فانفض يدك ، واذهب الى بار النادى واسكر كل ليلة ، وتمتع بساعات البار كل ليلة ، وادفع الثمن من تليف الكبد ، وانهيار جهازك العصبى ، ولا خوف ، فالموت سوف يأتيك لا محالة ، سواء كان بالويسكى ، أو الشيخوخة ، أو الانتحار ، أو بالقتل على يد رجل مثل زهدى فى حفلة من تلك الحفلات التى يقيمونها فى السجن ، ومع ذلك ورغم أن الموت واحد فلولواحد منا أن يختار . ترى ماقيمة هذا الاختيار . لو كنت أستطيع أن أقابل ذلك الرجل ، والد « تو » الذى قتلوه . لقد اختار أن يموت . هكذا ، كان قادرا على الاختيار . هل أقول طظ . مات فى ستين داهية ، هأنذا اشتمه بسفالة لم يجرؤ عليها زهدى نفسه . لأنه فى الحقيقة يحيرنى ويغيبظنى . كأنه وهو يموت ، وهو يواجه القتل ، وهو يسقط لافظا أنفاسه الاخيرة ، يجذبني الى حافة هاوية ويقول لى ان الحياة الحقيقية ، هى فى قبول التعرض للسقوط فيها . يقول لى انك لن تحيا حياتك الكاملة وأنت فى مأمن تام من الخطر ، يقول لى ان هناك لحظة تكتمل فيها كل الحياة ، فلا يكون هناك معنى للتخلى عنها مقابل نصف حياة أو ربع حياة ، ويصبح من الافضل على من فاز بلحظة الحياة الكاملة أن يموت ، ليصون ماحققه من اكتمال . هل هذا صحيح ، على العموم لقد جربت شيئا من هذا القبيل . وأنا مندفع بالفاروميو فى شوارع الاسكندرية بسرعة محنونة . كنت أواجه الموت فى اية لحظة ، وأنا لاأهتم ولاأعنى بأن هناك خطراً محققاً . كنت اشعر أنى فوق كل مافى هذه الدنيا من قوانين ونظم سائدة ، كانت قوى مجهولة اكبر بكثير من القوى التى يعرفها الانسان فى حياته العادية الرتيبة تدفعنى وتملؤنى بطساقة جبارة لا منطق لها ولا حدود . . نعم ان الانسان يقبل مخاطرة الموت بمجرد أن يسبق سيارة مجاورة ، هكذا ببساطة ، يندفع مصطدما بقطار ، يعبر مزلقانا للسكة الحديد ، أو يحطم حاجز الكورنيش ، ويتحطم بسيارته على صخور شاطئ البحر . أن يسبق سيارة أخرى بثلاثة أمتار أهم عنده من الموت . أنه لن يحصل على مال ولن يكتسب طعاما هو محتاج اليه ، أنه لا يموت دفاعاً عن حياته ، بل هو يموت لأنه يريد أن يحيا لحظة ما ، تكتمل فيها حياته . هل تكتمل حياتى فى سباق سيارات ، هذا غير معقول . وإذا كنت قد عرضت حياتى للخطر فى السباق ، فكان همى الأول ، هو أن التقى بهذا الشاب « تو » . هل يعنى هذا أنى مستعد لان أعرض نفسى للموت ، من

اجل أن أتعرف على انسان ، اى انسان ، أتعرف عليه معرفة حقيقية ولكنى لا أذكر انى كنت اسعى الى التعرف الى « تو » ، كنت أريد أن أعرف عنه ، أن أتبين سره ، وأن أكتشف حقيقة أمره ، وهل هو من رجال المخابرات أو شىء من هذا القبيل أم لا . ولكنى أشك الآن فى أن هذا كان مقصدى . لابد أن « تو » كان يحمل فى داخله شىئا يجذبنى اليه . لعلنى شعرت بهذا الشىء على نحو غامض ، فى نظراته أو فى لهجته السريعة المتلثمة ، أو منذ أن قال لى وعيناه تضحكان أنه يكون مسرورا اذا قال لخصمه « كش مات » لقد خطر لى ساعتها أن أسأل عن خصومه الذين يكرههم الى درجة أن يتمنى موتهم . ومازلت أذكر نظراته الطويلة الغريبة التى واجهنى بها وأنا أقول له أنه ليس فى حاجة الى رقعة شطرنج ليقول « كش مات » فهل كان ذكر الموت ، رغم أنه جاء بطريقة عابرة فى حديثى معه ، هو الذى جعلنى اسعى الى الاقتراب منه والتعرف الى هذه الحياة اليافعة فى الخامسة والعشرين ، وكيف تتعامل مع الموت وتفهمه . من يدري . ان الاسئلة لن تنتهى ، وأنا اتعمد الان اثارتها ، حتى أهرب من مواجهة مايجب أن أواجهه ، وهو تدوين كل ما عرفته من أحداث عن مقتل والد « تو » .

الحكاية بدأت هكذا ، قال لى زهدى أنه كان مديرا لسجن . . . فى أواخر الخمسينيات ، عندما جاءت تعليمات من المصلحة ، بالاستعداد لاستقبال دفعة من المساجين السياسيين . وكانت الليلة المحددة للعملية ، هى ليلة رأس السنة فى الساعة الثانية عشرة بالضبط ، وعندما تطفأ الانوار اعلانا بانتهاء سنة ، وبداية عام جديد ، وبينما الناس أمثال هؤلاء السياسيين المثقفين ، يحتفلون ويشربون الانخاب لانهم جميعا كفرة يشربون الخمر ، سوف تهبط عليهم حملات الشرطة كالصاعقة فى البيوت التى يحتفلون فيها ، وهى طبعا خطة بارعة ، لانهم متجمعون فى بضعة بيوت ، عند الاثرياء منهم وهذا غريب جدا ، هكذا قال لى زهدى الذى لم يفهم كيف يتورط أولاد ناس أثرياء ومن عائلات كبيرة فى مثل هذه الأمور التى تنتهى بهم الى المعتقلات والسجون ، والأغرب والادهى ، انهم يطالبون بأن تستولى الحكومة على ممتلكات عائلاتهم . أولاد فاسدون ، ملحدون أغلبهم بنظرات من كثرة القراءة والكلام الفاضى ، ولا أحد يعطف عليهم وأغلبهم مصاب بالشذوذ الجنسى لانهم يؤمنون بالحياة البزرميطة وكان زهدى فى قمة الضيق بالموعد المحدد لوصول المعتقلين . فقد

كان مدعوا عند صديق له فى المعادى تعود أن يقضى رأس السنة عنده مع شلة الاصدقاء ، قد لا يلتقون طوال العام إلا فى هذه المناسبة ، وكانوا يحتفلون احتفالا رهيبا ، سكرة ينى . كان يشرب وحده زجاجة ويسكى لابد أن تكون « جراند مافينش » وكان يتفاعل بهذه السهرة ولكن أولاد النحس افسدوا الترتيب وكان عليه أن يرتب للحفلة التى يستقبلهم بها . وكان لابد أن تكون حفلة من النوع الثقيل . وهى تحتاج الى خبير يتولى تنظيمها ، ويجرى لها البروفات قبل وصول الضيوف ، وكان فى مصلحة السجون « خبير يعجبك » اسمه شوكت ، هو الوحيد الذى كان يعرف كيف يرحب بهم . تركى وسيم اشقر ، شكله حلو ، وبينى وبينك هو أيضا معروف عنه أنه عريق فى الشذوذ الجنسى . . ولا يجب أن ادهش فالمثل يقول ، لا يفيل الحديد الا الحديد ، ومصلحة السجون تتعامل مع أوسخ اصناف البنى آدم ، ولذلك فهى تستعد لكل نوع برجال من نفس نوعهم . القتلة لا يشكهم الا من كان قاتلا مثلهم ، لا يهم أن يكون قاتلا بالفعل ولكن لابد أن يكون عنده استعداد لان يقتل فى أية لحظة ، اذا ماهاج او تمرد المساجين . وكان شوكت هذا ، له شهرة مدوية ، كان قد درب فرقة من الوحوش ، تعمل تحت أمره . ويذهب بهم الى أى سجن فى المهام الخاصة ، وقد جاء مع فرقته ، وبدأ يجرى البروفات فى هذا القنبر سوف يدخلون . ثم يهجم عليهم بعض الرجال ويدهم الهراوات ، صارخين فيهم أن يتجردوا من ملابسهم ، بلا تأخر ولا ابطاء . يجب أن يصبح كل واحد بلبوسا بغير أى تردد ، أو تفكير فيما يفعله ، ثم يدفعوا تحت ضربات الهراوات الى حوش السجن ، ليمرؤا بين صفين من رجال الفرقة ، وهم يحملون ملابسهم مكومة فوق رؤوسهم ، وطبعاً ، لابد ان يرفع الواحد منهم كلتا يديه حتى لا تسقط كومة الملابس ، وكذلك يصبح جسمه للعارى اللط معرّضاً للضرب ، فى أى موقع ، وهو يجرى ، حتى يدخلوا واحداً واحداً فى عنبر آخز ، فيستقبلهم الحلاق ، ويأمرهم بالجلوس القرفصاء ، ويخلق شعرهم نمره واحد . ثم يستلم من يخلق ملابس السجن . هذه هى باختصار ترتيبات الحفلة ، وقد أجرى شوكت البروفة ، وبدأ أن كل شىء على مايرام . . وما كان زهدى يتوقع أن تحدث مشكلة . فهذه الحفلة رغم ضخامة ضيوفها وأهميتها تقليد متعارف عليه ، وهو ضرورى لان النزلاء لايد أن تواجههم منذ اللحظة الاولى صدمة صاعقة تكسر شوكتهم ، وكلما كانت الصدمة قوية وشديدة ،

كلما سهلت الامور فيما بعد ، والحفلة الناجحة يتوقف عليها الكثير فى تحديد العلاقة بين المساجين وادارة السجن ، خاصة اذا كان المساجين من المثقفين وكلهم عقد ، فهم يواجهون السجن بشعور قوى من التحدى ، واحيانا يهتفون أو ينشدون أناشيد جماعية ويتظاهر بعضهم بالبطولة ، وقد يكون لبعضهم تأثير على السجنائين الغلبة ، أو حتى على الضباط الصغار الذين خرجوا حديثا من المدرسة .. وقد يتساءل هؤلاء الضباط فيما بينهم عن السبب فى الاعتقال وجدواه ، أو يدخلون فى مناقشات غير مرغوب فيها حول الافكار التى يعتنقها هؤلاء المساجين . وقد يؤدى هذا اذا لم يضرب من البداية ، الى تعاون يؤدى الى كارثة ، هرب أو تهريب يساعد فيه السجن ، أو الضابط الصغير . لذلك يصبح من المحتمل أن تقول أنا هنا ولا أحد منكم يا أولاد الكلب يستطيع أن يرفع صوته ، أو يقول أنا رجل ، مسألة نظام ومسئولية ، وآلا انقلب الحال الى فوضى .. انها معركة بين ارادتين . ارادتى أنا .. أو ارادة السجن ، ولذلك لابد من قهره ، اذلاله وكسر ارادته ، لابد أن تكسر عينه . ثم بعد ذلك ترتاح ، لانه يصبح كالعجينة الطرية تشكلها كما تريد . هذا هو الهدف من الخطة .. وكان يجب أن أشهد حفلة كهذه . قالها زاهدى وهو يضحك . مستدركا أنه لا يعنى أن أراها كأحد المدعويين ، ولا أقول أن ضحكته أفرغتني لاني كنت اسمع ولا أسمع ، وما أدونه الان لا أدري كيف أتذكره ، المهم هو أن الحفلة بدأت بالفعل ، واصطفت فرقة شوكت فى اماكنها ، بينما دخل المدعوون العنبر ، وانتهالت عليهم الهراوات والصرخات تأمرهم بالتجرد من ملابسهم . ثم خرجوا مهرولين الى الحوش ، وشوكت فى قمة تلذذه ، كأنه يشتهي مايراه ، أشتهاء جنسيا حادا ، وقد انطلق وحوشه يفتكون بالضسيوف العراة ، الذى يسقط فيركلونه بالاقدام ، ويدفسون بالهراوة فى مؤخرته ، والذى تنهشم نظارته ، فيمشى كالاعمى يواجه الركلات واللطومات ، والذين يبولون على أنفسهم من هول مايلاقونه ، وهم لا يدرون مايفعلون ، والويل لذلك الرجل العريض الطويل ، لابد أن يركع ويخضع ، ويأمره شوكت فى مرح ونشوة أن يصيح بأعلى صوته أنه امرأة . وترى كيف أن هذا الحشد ممن يقولون عنهم أنهم مثقفون وسياسيون وأبطال مجرد كومة هشة من اللحم والعظم الذى لا يساوى ثلاثة مليمات ، ويفهم كل واحد فى السجن مكانه . السجن لم يعد يخشى هذا الافندى المتعلم ، بعد أن رآه عاريا راکعا صارخا

انه امرأة . الضابط الصغير ، ينسى كل شيء عن تلك الافكار التي في  
رعوس هؤلاء المدعورين النهارين ، وكذلك المساجين انفسهم يفتقون  
على هذه الصدمة من الحياة التي كانوا فيها منذ لحظات . والتي  
كانوا قد تعودوا عليها . النوم في فراشهم مع زوجاتهم ، وبين اولادهم  
بعضهم كان يسكن سرايات وقصورا ، ويملك سيارات فاخرة فاخرة ،  
كانوا يستخدمونها في توزيع المنشورات والكتب ، كل شيء ينتهي في  
لحظة بفضل الحفلة ، العادات تتحطم ، دخول الحمام في الصباح ،  
وحلق الدقن امام مرآة وحوض في حمام من القيشاني ، دخول الافطار  
له في السرير وشرب الشاي مع قراءة جرائد الصباح ، الكلام في  
التليفون ، اختيار رباط العنق المناسب ، والخروج الى الشارع ،  
وضجة الحياة وطعمها الخاص ، كل هذا ليس من السهل أن تتغلى  
عنه فجأة وفي يوم وليلة ، تجد نفسك على برش في زنزانة ،  
ولتساعدكم على مواجهة الحقيقة ، والاعتراف بالواقع الذي أصبحوا  
فيه . . لابد من وضع الحديد في أيديهم ، وربطهم في سلاسل ،  
لابد من خلع ملابسهم المدنية فورا ، ويبدأون الحياة الجديدة عراة كما  
ولدتهم أمهاتهم ، انهم يولدون من جديد ، بملابس جديدة ، ومظاهر  
جديدة ، والى جانب هذه المظاهر ، هناك ماهو أهم ، وهو ما في داخل  
نفوسهم ، لقد تعودوا على أسلوب معين في التعامل ، شغل المثقفين  
لا مؤاخذه ، مناقشات ، وآراء وافكار ، وكل كلمة تقولها يردون عليها  
بعشر كلمات ، وكل واحد يظن أنه زعيم كبير . ولابد من ضرب هذا  
الوهم ، وإذا لم تضربه فورا ، وتخلصه منه ، فسوف يتعذب  
نفسيا عذابا بطيئا لارحمة فيه ، سيصبح كالمجنون تماما ، يجلس على  
خازوق ، ويتصور أنه بطل ، لذلك لا تظن أن مانفعله قسوة ، أبدا ، هؤلاء  
ناس ماتوا وانتقلوا الى حياة أخرى هي حياة السجن ، ولابد أن  
يتأكدوا بمظاهر مادية محسوسة من أنهم في السجن ، وأن هناك من هو  
أقوى منهم ، وقادر على اخضاعهم ، والبطش بهم في أية لحظة ،  
أنه نفس المنطق الذي يقوله ابن البلد عندما يذبح قطة ليلة زفافه أمام  
عروسه ، حتى تعلم من الليلة الاولى ، أنه قادر على ذبحها مثلما فعل  
بالقطعة ، أذا لعبت بذيلها أو زأغت عيناها هنا أو هناك .

ان زهدى يتصور - هكذا ببساطة - ان هذه الافعال طبيعية ،  
وأنها من أصول مهنته ، هي جزء من فن ادارة السجن ، قال ان هذه  
المعاملة التي يعامل بها المسجونين السياسيين لا تختلف عما يحدث  
في الجامعات الاوربية والامريكية ، عندما يدخلها الطلبة الصغار

لاول مرة ، فيهمج عليهم الطلبة الكبار فى حفلة استقبال ويشبهونهم  
ضرباً وبهدلة ، ويعاملونهم بقسوة ويمزقون ملابسهم او يضربونهم  
بالشنلايت ، او يكلفونهم بالقيام بأعمال مهينة ، كل هذا حتى يعيق  
الصفار القادمون من أحضان أمهاتهم ، ويتخلصوا من طفولتهم الكامنة  
فى نفوسهم ، ويتحولوا بهذه العملية التى ظاهرها القسوة وباطنها  
الرحمة الى رجال ، وطبعاً كان الذى يهيم من هذه المقارنة هو فلسفة  
التغيير بطريق الصدمة بصرف النظر عما اذا كان تغيير أطفال ليتحولوا  
الى رجال ، او تغيير رجال ليتحولوا الى كومة لحم وعظم لا تساوى  
ثلاثة مليمات ، ثم انطلق يروى لى مقدمات القتل ، فقال أنه شخصياً  
لا يتدخل للضرب بيده ، ورغم طول السنوات التى قضاه فى الخدمة  
سواء فى الاقسام او السجون ، فانه لم يضرب أحداً ، لا فى قسم  
شرطة ، ولا فى سجن ، لانه من المدرسة التى تعتمد على الهيبة  
ونفوذ العقل والدكاء ، ولا تحتاج الى استخدام القوة المادية لمواجهة  
المجرمين العتاة ، تكفيه نظرة او كلمة ينطقها بلهجة خاصة ، وبصوت  
من طبقة معينة ، حتى يرتجف المذنب وينهار ، والمسألة فى نهاية  
الامر مسألة تخصص ، فاذا احتاج الى استخدام الوسائل المادية ،  
فهناك المتخصصون فى ذلك ، وعلى رأسهم شوكت ، رغم أنه هو  
ايضاً لا يمارس الضرب بنفسه ، ولكنه يجيد تدريب رجال فرقته  
على هذه المهام ، ويكتفى هو بالتلذذ برؤية الرجال ، يققدون رجولتهم  
ضرباً ، أو اذلالاً ، أو اعتداء عليهم . مرة أو مرتين ، وجد فيها  
زهدي نفسه مضطراً الى أن يضرب بنفسه ، عندما تبلغ وقاحة المذنب  
نقطة لا مفر فيه من مواجهته ببطش مباشر فورى . ولكن العملية لا تتم  
بأنفعال ، فهي تحتاج الى خبرة وحكمة ، وتمهيد وترو ، فأكبر خطأ  
تقع فيه هو أن تضرب وانت منفعّل ، فى هذه الحالة تكون قد وقعت  
فى الفخ ، لان انفعالك يجعل منك ندا للمضروب ، وهو اعتراف ضمنى  
بأنه هزك أو جرحك فأغضبك ، وأثر فيك ، وهذا لا يصح ولا يجوز ،  
أن المذنب حقير فى أسفل سافلين ، وهو لا شيء ، فكيف يؤثر هذا  
اللاشيء فى الرجل الذى يتحكم فى مصير ، غير معقول ، لذلك يحتاج  
الامر الى هدوء وريانة ، وعندما ضرب زهدي ذلك الولد الوقح الذى  
كان يظن نفسه قادراً على تحدى الاوامر ، وينظر فى وقاحة الى من  
حوله ، مستهيناً بهم ، وكأنه لا يهيم شيء ، قرر أن يفعل ذلك حسب  
خطة مدروسة ، فاقترب من الولد الشقى ، ثم وقف أمامه غير ملتفت  
اليه ، وتعهد أن يتحدث بصوت هادىء جداً مع ضابط زميل له فى

القسم ، وأثناء ذلك ، كان يرفع قامته ، ويجمع ارادته ، ويركز كل تفكيره فى الضربة التى سيوجهها ، ثم التفت الى الولد يرشقه بنظرة حادة متعمدا أن تكون عيناه مصوبتين فوق عينى الشقى ، ورسم على شفتيه ابتسامة هادئة .

وقال له : بآه انت موش عاجبك الحال هنا ، وقبل ان يجيب الولد ، رفع زهدى يده مشيرا الى شىء ما فى سقف الحجرة ، مخاطبا زميله الضابط ، وكأنه لا يعنيه ماسوف يسمعه من وقاحات الولد ، وفجأة وبسرعة خاطفة ، منتهزا فرصة أن الولد رفع عينيه متتبعا اشارة يده الى السقف ، وجه اليه ضربة ساحقة بكف يده على خده .

وهنا يجب أن تلاحظ أن هذه الضربة تحتاج الى مهارة فنية ، فلو هبطت بكفك على خد الزبون واستقر الكف طويلا على الخد ، فالضربة تفقد قدرا كبيرا من قدرتها ، لابد أن تضرب بطريقة الرج ، أى تهبط الكف بكل ثقلها على الخد وفى نفس الوقت لا تستقر ، بل تحدث رجة وأنت تسحبها بسرعة ، هذه الرجة فيها كل الفائدة . وهكذا تكوم الولد ساقطا على الارض ، الضرب فن دقيق ، ويتطلب من الشخص الذى يمارسه قدرة كاملة على التحكم فى اعصابه .

هذه قاعدة أساسية من يخرج عنها يعرض نفسه للوقوع فى أخطار حتى لو كنت تضرب امرأة ، وهو يعرف طبعا أن الرجل الحقيقى لا يضرب المرأة . الا اذا كان من باب المناغشة وتهيئة الجو ، فهناك بين النساء من يتلذذن بالضرب ، وبينهن مالا ينصلح حالها الا اذا أكلت العلقة الساخنة .

وتأديب المرأة بالضرب امر معترف به شرعا ، اكسر لها ضلعا ، يخرج لها مكانه ضلعان .

ذات يوم ضرب زهدى تلك المرأة الضخمة القوية منيرة بيجو ، كانت تظن أنها تستطيع أن تضحك عليه ، ولكنه قطع حديثه عن منيرة ومضى يقول أنه أسهب فى شرح حكمة الضرب وفنونه ، ليضعنى فى الصورة ، ولا فهم كيف حدث ذلك الذى حدث ، وانتهى بمقتل والد « تو » .

فقد كان السبب المباشر لمقتله ، هو انفعال شوكت ، رغم أن هذا كان أمرا غير محتمل الوقوع ، لولا أنه اتهمك فى تلذذه ، ونسى نفسه وهكذا شاءت الظروف أن تقع الواقعة .



## الفصل الخامس

كانت الحملة فى ذروتها ، الاجساد العارية تتساقط فى الحوش تحت ضربات العصي ، ثم تنهض مسعورة لاهثة ينهشها الفزع ، لتسقط من جديد ، والواحد منهم ، يركع تلو الاخر عند قدمى الحلاق الذى يخلق له شعره . وكان البعض قد تسلم بالفعل ملابس السجن وأسرع يرتديها ، وقد أصبحت بالنسبة له ، فى تلك اللحظة ، نعمة تهبط عليه من السماء ، وملأذا يحتمى به من الهول الذى رآه . وكان زهدى قد بدأ يشهر بالملل ، فقد شبع وحصل على كفايته ، وكان ينظر فى ساعته بين لحظة وأخرى ، وهو يفكر فى اللحاق بأصحابه فى المعادى ، ليشرب له كأسين حان موعدهما ليتم الانسجام ويكتمل المزاج ، وهو يعترف بأن المشهد الذى رآه ، قد حرك غرائزه ، فراودته رغبة جامحة ، فى أن يفاجئ أصحابه فى المعادى وهم سكارى ، فيطيح بهم كما يشاء ، وأن ينتهز الفرصة فيصفع كل واحد منهم على قفاه ، كان زهدى وهو يتحدث عن أصدقائه على هذا النحو ، يؤكد لى مرة أخرى ، انى أمام رجل لا يستطيع أن يتعامل مع الآخرين ، ولا يعرف كيف يعبر عن نفسه ، الا من خلال تبادل الشتائم والاهانات وقد علمنى زهدى أنه اذا كان للانسان تلك الافاق السامية الرحبة من الكرامة وعزة النفس والمثل العليا ، وهى مجالات لا يستطيع أن يصل اليها حيوان آخر غير الانسان ، فان الانسان أيضا عنده استعداد للهبوط الى هوة سحيقة من الانحطاط والسفالة والحقارة ، يعجز الحيوان ، بل تعجز الحشرة الدنيئة ، عن التردى فيها . فلا أظن أن صرصارا يتلذذ بضرب صرصار آخر على قفاه ، ان فى نفوسنا نحن البشر طاقات من الخير والشر ، والنبل والسفالة ، والسمو والحقارة ، بحيث أصبحت حياتنا فى كل لحظة ، مسرحا لمعارك لا تنتهى بين النقيض وتقيضه سواء كانت المعارك من حولنا ، أو داخل نفوسنا . على أية حال ، لم يأت بعد الوقت الذى أرثى فيه البشر ، والاجدر بى أن أمضى فى تسجيل المعلومات ، فبينما كان زهدى يستعد لإنهاء الحفلة ، كان شوكت يتابع المشهد بكل حواسه وجوارحه



وهو يتمايل بجسده ظربا . وكان الانين والصراخ وصوت ارتطام  
الهرات بالعظام ، ولهات الضارين والمضروبين موسيقى حارة دافقة  
قد استولت عليه كما تستولى دقات الزار على امرأة ركب جسدها  
عفريت . وأدرك زهدى أن الصعوبة الحقيقية فى انهاء الحفلة ، هى  
فى افاقة شوكت من نشوته . وهو الوحيد القادر على اصصدار  
الاوامر لوحوشه بالتوقف ، فقد أنتشى هؤلاء الوحوش باللحم والعظم  
الذى يفترسونه ، واهاجتهم صرخات الالم ونافورات الدم التى تنبثق  
هنا وهناك . وأدار زهدى بصره فى جولة فاحصة لمسرح الحفلة ،  
وهو يجمع قواه ، ليتخذ قراره بأن يتدخل لدى شوكت ويقول له  
كفى . وهنا حدث شيء لم يتبين زهدى حقيقته أول الامر ، فقد  
وقعت عيناه على شخص يرتدى الملابس المدنية ، وكان واقفا ينظر  
فى هدوء الى مايجرى حوله ، وكان لا شأن له بالامر . ويقول زهدى  
أن تلك اللحظة مرت به فيما يشبه الحلم ، وهو يعجب كيف أن رجلا  
خبيرا مثله ، يرى ذلك الشخص فلا يفتن على الفور الى حقيقة أمره  
كان رجلا قصيرا ، ربعة ، له رأس ضخم ، والتفت عينا زهدى  
بعينيه ، ولم يحدث أن ظهر أى نوع من الخوف أو القلق فى عيني  
الرجل ، لو كان زهدى قد شعر أن الرجل قد ارتبك لفهم فى الحال  
حقيقة الامر وهو الذى تعود أن ينهش اعماق المذنب ويهتكها بنظرة  
واحدة . أن عينيه تشمان مثل انفه ، انها تشم رائحة القلق ، ورائحة  
الخوف ، حتى لو أخفاه من يمانى منه . كان الرجل يرتدى بدلة بنية  
وقميصا سكروته ، ورباط عنق أخضر ، ويقول زهدى ساخرا من  
نفسه ، ان كل الذى جلب انتباهه فى تلك اللحظة ، هو رباط العنق  
الاخضر ، فقد فكر فى أنه رباط أنيق ، وتساءل ترى من أين يكون  
قد اشتراه . مجرد تساؤل عابر ، انشغل بعده تماما بما يجسرى  
امامه من أحداث كانت تبدو لحظتها أكثر إثارة وصخبا . وكان  
شوكت يقف على بعد مترين من زهدى ، متغمسا فى ملذاته واعجابه  
بوحوشه المدربين والعرض الباهر الذى يقدمونه . ولعله هو الآخر  
قد رأى ذلك الرجل ذا رباط العنق الاخضر فلم ينتبه اليه . هكذا  
شاءت الاقدار ، أن تدخر مفاجأة لنهاية الحفل ، ليست فى حسابان  
أحد ، فمن كان يتصور شيئا خارقا وغير عادى الى هذه الدرجة ،  
هل يعقل أن يكون وسط هؤلاء العسرايا ، شخص رفض أن يخلع  
ملابسه ، هل يعقل أن يكون هناك من فكر فى تحدى الهرات والاوامر  
الهادرة ، أن تصور هذا أمر مستحيل ، فما الذى يستطيع أن يفعله

هذا الاحتمق امام هذه القوة الرهيبة وهو أمزل لا حول له ولا قوة .  
لو فكر لحظة ، لعرف أن فعلته هذه سوف تنتهى بسحقه تماما ، وأنه  
سيلقى من الاهوال ما يجعله يتمنى لو لم يولد أبدا . ومع ذلك فقد  
نجح فى خطته لبعض الوقت . لان الجميع ، من العساكر والضباط  
لم يخطر ببالهم أن هذا رجل لا يدعن للأوامر ، أن الامور كانت تجري  
حسب الخطة الموضوعة ، وحسب البروفة المتقنة التى أجسراها  
شوكت ، ولم يضع أحد فى حساب الخطة ، ولا فى البروفة ، أنه  
عندما تصدر الاوامر لهم بأن يخلعوا ملابسهم ، أن واحدا سوف  
يتخلف ، طبعا كان المتوقع أن يترددوا أو يتلکأوا ، فأغلبهم لم يخلع  
ملابسه ويقف عاريا فى مكان عام من قبل ، ولمواجهة التردد ، يبدأ  
الضرب فورا فى نفس اللحظة التى تصدر فيها الاوامر ، وعندئذ  
ينصاع الجميع ، وهكذا اندفع رجال شوكت يضربون كل العراة ،  
الذين يحملون فوق رؤوسهم كومة الملابس المخلوعة ، أصبح الهدف  
واضحا ومحددا ، وهو اللحم العارى ، والاذرع الممتدة فوق الرؤوس  
والسيقان المرتعدة ، والاجساد المدعورة القافزة فى الهواء أو الساقطة  
على الارض . أصبحت كل العيون وكل الايدي القابضة على الهراوات  
تجرب بطريقة آلية مطاردة هذه الاهداف المحددة والمتفق عليها . لقد  
سقط الجميع فى اطار الحفلة ، بشقيها : فرقة الضارين ، وجماعة  
العراة المضروبين . ولذلك لم ينتبه أحد الى وجود هذا الشخص الذى  
ظل خارج الاطار المرسوم ، وكان من الممكن فى مثل هذه الظروف  
المحمومة الا ينتبه اليه أحد حتى نهاية الحفل . وكان من الممكن ان  
يتدبر امره بعد ذلك مع سجان يعطف عليه . وينضم الى زملائه  
محتفظا بهيبته ، وان كان هذا أمر يصعب تصوره وفهمه ، ولكن ماذا  
تقول امام تصارييف القدر والاعيبه الغريبة ، التى جعلت الجميع  
لا يبصرون ما يرون أمامهم . . وتقدم زهدى وأمسك بيد شوكت  
وهزها ، فلما انتبه اليه ، نظر اليه بعينين مفعمتين بالسرور والامتنان  
ويقسم زهدى أنه رأى فى عيني شوكت ولها وحنانا أنثويا ، وقد مد  
يده تضغط على يد زهدى وتفركها كأنه يدعو دعوة صريحة الى  
فراش . . فلم يتمالك زهدى الا أن يهمس فى أذنه واصفا اياه بحقيقة  
أمره ، فغمز له شوكت بعينه ، فقال له زهدى أنه قد آن الأوان للانتهاء  
من هذا الامر كله ، فبدأ على شوكت الاسى ، والاستعطاف ، قال له  
زهدى أنهم هلكوا ، وأن رجاله قد نالهم التعب ، وكان شوكت يهرب  
بعينه حتى لا يسمع ، وفجأة اعتدل فى وقفته ، وتسمرت عيناه فى

اتجاه واحد لا يتغير ، وشحب وجهه وفتح فمه فى غباء ، ونظر زهدى فى نفس الاتجاه ، فرأى ذلك الرجل القصير الربعة .. الضخم الرأس ، ذا البدلة البنية ورباط العنق الاخضر . وعندئذ فقط ، فهم زهدى ، وأدرك دفعة واحدة سر الرجل .. وكان أول مقاله بيئته وبين نفسه أن هذا الرجل قد مات بالفعل .. ورغم أن شيئا لم يحدث بعد ، فقد شعر بانقباض . وفى نفس الوقت نشط عقله . وقد هاجمته دوامة من الصور .. كان يرى الرجل صريعا ، وكان يرى أصحابه فى المعادى سكارى . وكان يرى شوكت شاحبا واجما وكان انقباضه يحدثه حديثا هامسا بأن هذه الليلة لن تنتهى على خير ، وقبل أن يتخلص من هذه الدوامة ، رأى شوكت يتقدم ببطء نحو الرجل ، ولم يستطع أن يتحرك وراءه ، ظل جامدا مكانه يرقب الرجل وهو يصوب نظرات ثابتة جسورة ، فى اتجاه شوكت ، كان الوقت قد فات لمن يحاول أن يمنع الصدام ، ثم يهود زهدى ويقول بصراحته الحيوانية ، أنه كان يترقب هذا الصدام بشغف ، وكأنه لو تدخل ، سوف يحرم من متعة نادرة ، تفوق متعة سماع أم كلثوم فى حفلة من حفلات العمر . نظرات الرجل ، وذلك الفصل العجيب الذى أقدم عليه ، جعل من لقائه بشوكت مباراة مشيرة ، أنك لا تستطيع أن تفسد مباراة الموسم بين الاهلى والزمالك ، أو توقف بطولة العالم بين محمد على كلاى وجو فريزر ، قال زهدى أنه بعد مضى كل هذه السنوات ، لا يريد أن يخدعنى ولا أن يخدع نفسه . وانه كان يتمنى أن يحدث الصدام ، وأن يتمتع بحدوثه ، وأن كل ما كان يخشاه هو احتمال انهيار الرجل بسرعة أمام شوكت ، وأن هذا الانهيار سوف يكون مخيبا لتوقعاته فى الحصول على مزيد من المتعة والاثارة ، وهى متعة فيها ايضا رغبة فى الانتقام والاثارة ، وهى متعة فيها أيضا رغبة فى الانتقام والتشفى من هذا المخبول الذى تحدى هيبتهم .. لابد أن يسقط ، وأن تهشم أنفه فى أرض الحوش ، وسوف يكون جسده المربع ورأسه الضخم الذى يشبه كتلة الصخر ، شيئا مناسبا لتلقى ضربات الهراوات وركلات الاقدام . كان شوكت قد وصل الى الرجل ، وعندئذ فقط تقدم زهدى خطوات ، ولكنه ظل محتفظا بمسافة كافية بينه وبين الرجلين . والغريب أن أحدا من رجال شوكت لم ينتبه حتى تلك اللحظة الى مايجرى وما سوف يحدث . وزملاء الرجل كانوا فى حالهم وليست لديهم أدنى فرصة ليدركوا شيئا غير الذى يلاقونه فى المعركة .. ومضت لحظات ، وشوكت واقف يتأمل الرجل

وليس بينهما أكثر من شيرين : العين فى العين .. وقد ثنى شوكت  
وسطه فى وقفة متخلعة ، والرجل لا تتحول عينه عن شوكت ،  
لا يهتز له رمش .. وقد ظهر الآن أنه كبير فى السن ، يبلغ الخمسين  
من عمره ، شعره أشيب ، وصدق حدس زهدى فى أنه من المدرسين  
فقد اتخذ مظهر ناظر يقف فى فناء مدرسة . ولا يعجبه ما يراه .. شئ  
غريب حقيقة ، لم ير زهدى مثيلا له ، مع طول خبرته فى معاملة  
أعتى الاشقياء ، والسفاحين . نظرات ليست شريرة ، ولسكنها  
تستفزك بما هو أكثر من الشر ، وكان شوكت يثنى جسده الى اليمين  
فاعتدل وانثنى ناحية الشمال وخرج صوته ناعما متكاسلا .. صوت  
ثعبان أرقم يخدر فريسته قبل أن يلدغها اللدغة القاتلة .

سأل شوكت :

— اسمك إيه ؟ !

ونظر الرجل نظرة طويلة حادة ، وحرك شفثيه ، وقال اسمه  
بصوت خفيض .

وعاد شوكت يسأله بنعومة اكبر :

— اسمك إيه يا شاطرة ؟ !

ولم يحول الرجل عينيه عن شوكت ، ولم يقل شيئا .  
فالتفت شوكت الى زهدى قائلا فى ميوعة يعرف أنها مقدمة لكل  
الشراسة التى يمكن أن يتخيلها انسان .  
— شوف يازهدى .. الحلوة دى مكسوفة موش عايزة تقول  
اسمها .

كانت تلميححات شوكت تنبئ بشئ مستطير ، ووجد زهدى نفسه  
لا يحتمل ما قد ثار فى مخيلته من توقعات ، فصاح بصوت كالرعد .  
— اسمك إيه ؟

واذا بالرجل يقول بصوت قوى :

— أنا قلت اسمى .

كان صوته متحديا مستفزا ، أن دل على شئ ، فعلى غباء مطلق ،  
وعدم فهم لحقيقة الموقف الذى هو فيه ، والعواقب الوخيمة التى  
سوف تنجم عنه .. لقد قال الله سبحانه وتعالى « ولا تلقوا بأيديكم  
الى التهلكة » لو عرف الرجل نوايا شوكت وما يستطيع أن يفعله به  
لأنهال على قدميه تقبيلا لحذائه ، ولكنه كان غبيا بليدا .  
وعاد شوكت يقول بصوت فيه نبرة حادة :

— هنا يا شاطرة .. لازم تسمعى الكلام ولما تجاوبى تقولى يا أفندم .

وقبل أن ينتهى من كلماته ، كان قد رفع يده وهوى بصفعة قوية مدوية على ذلك الوجه العنيد الذى تلقى الصفعة فى بلاد غريبة .  
وعاودته نعومته وكأنه لم يفعل شيئا وقال :  
— عايز أسمع صوتك . اسمك يا حلوة وتقولى يا أفندم .. فاهمة ..  
.. علشان أحمر لك خدودك .. واحط لك روج .. وتبقى عروسة .  
حلوة .

كان الرجل يسمع ولا يبدو عليه أى أثر للخوف ، لم يتراجع ، لم يهتز ساعده ، استعدادا لدرء صفعة جديدة ، لم يفعل شيئا على الإطلاق ، واكتفى بنظراته الثابتة ، التى أصبحت أكثر نفاذا ، وكأنها تتفرج على شوكت ، أو هى موجهة الى منظر مجهول .  
وارتفع صوت شوكت :  
— انتى سامعائى .

ومد يده ، ولم يصفع الرجل ، بل ربت على خده فى حنان .. وهو يردد :

— انتى وحشة ، وسايقة الدلال ليه ياللا قولى اسمك .. وقولى يا أفندم .

وانهال عليه شوكت بصفعتين سريعتين متتاليتين ، والرجل لا يتحرك ، ولا يرفع يده ليدافع عن نفسه ، وكأنه لا يسمع شيئا ، ولا يشعر بشيء على الإطلاق .. كأننا غير موجودين . كان كل مايجرى أمامه لا صلة له به .. اللعين الوقح ، كان لابد من كسره واذلاله ، والا ضاعت هيبة الجميع ، ولم يعد زهدى قادرا على اتخاذ موقف المتفرج الذى يشهد مباراة كرة قدم أو يسمع أم كلثوم .. هذا التحدى للسلطة لابد من قمعه وسحقه ، هذا الكلب لا يريد أن يتعامل معهم ، لا يريد أن يستسلم ، يتوهم أنه وهو اعزل ، قادر على مواجهة هذه القوة الرهيبة التى تقف أمامه .. قال زهدى وقد رأى أن الأمور سوف تتعقد :

— سيبهولى يا شوكت .

كان زهدى قد اعتزم أن يفض الحفل وأن يتدبر أمره مع هذا الرجل على انفراد فهو كرجل محنك يفضل أن يتم مثل هذا التدبير أمام أقل عدد ممكن من الشهود وربما الأفضل ألا يكون هناك شهود على الإطلاق .. ومن المهم جدا ، وفى كل الأحوال ، ألا يتنبه أحد من

الآخرين الى ما يحدث .. لو تنبهوا فسوف يلتهب الجو وسوف  
تتعرض حياة زهدى وشوكت للخطر . تصور هذا الفناء والعناد .  
ينتقل الى الآخرين ، فيثوزون ويهجمون على العساكر ، أن الحيوانات  
الجريحة تكون شرسة الى اقصى حد ، وهى مسالة نفسية وبمجرد أن  
يقرر واحد منهم أن يبيع عمره فالعدوى تنتقل الى الجميع ، ومعنى  
هذا أن تتحول الحفلة الى مذبحة ، ودماء تسيل حتى الركبة ،  
وسين وجيم ، وفضيحة لا تعرف الخلاص منها . ويضيع مغزى  
الحفلة ، ولكن شوكت ما كان ليسمع كلام زهدى .

كان الامر بالنسبة له أفدح وأخطر من هذا كله ، أهم شيء عنده  
كان أن ذلك الرجل قد أفسد عليه تشوقه ، وقطع عليه شهوته وهى  
فى اكتمالها ، وما كان لشوكت أن ينهزم امام هذا التحدى ، وهو  
الذى يعيش بفكرة واحدة ثابتة يقيم عليها حياته ، ويستمد منها  
شهرته ووظيفته ، وهو أنه مخلوق كل مهمته فى الدنيا القضاء على  
هذا الشيء الذى اسمه رجولة ، وأن هذه الرجولة وهم ، ونكتة  
يخدع بها الناس انفسهم .. وهو فى قرارة نفسه يؤمن حقيقة  
بذلك ، ويعتقد أنه مامن رجل يستطيع أن يصمد أمامه ويفتح عينيه  
فى عيني شوكت قائلا له ، أنا رجل ، وأنت لست رجلا .. حتى  
زهدي كان يخشاه وكل الذين يتعاملون مع شوكت يخشونه فهم  
يستخدمونه كما يستخدم أصحاب السيرك حيوانا شاذا مفترسا ،  
يقدمون له الطعام ، والرعاية ، ويستعرضون شراسته ويخشونها فى  
نفس الوقت ويحترسون منها .. ذات مرة قال ضابط كبير لزهدى ،  
انه أفاق ذات ليلة فزعا على كابوس رأى فيه شوكت فى صورة  
امراة غولة تطارده ، وبعد أن ضحكا ساخرين من هذا الحلم الغريب ،  
قال الضابط لزهدى مهموما وقد استغرقه تفكير ذاهل ، أنه أحيانا  
يفكر فتشبط به الافكار ، مع التقلبات السياسية التى تحدث  
وما يصاحبها من عزل وفصل واعتقالات ، فيخشى أن يأتى يوم يجد  
فيه نفسه تحت برائن شوكت . واتفق زهدى مع صديقه الضابط ،  
أن شوكت سيكون فى قمة سعادته ، لو أتاحت له الفرصة لأن  
يفتك بأحد من زملائه أو رؤسائه ، فكلما كان الرجل صاحب هيبة  
أو نفوذ ، كان ذلك أدعى الى تلقى شوكت وأزدهاره عندما تتاح له  
فرصة افتراسه . ان شوكت يسمع باستمرار « فلان عامل راجل  
هاتوله شوكت » .. « فلان لا يريد أن يعترف ابعثوه له شوكت » ،  
ويأتى شوكت ، لينفذ المهمة ، وليثبت لنفسه أولا وقبل أن يثبت لاحد

آخر ، أن هذا الذى يظن نفسه رجلا ، كان كاذبا واهما يستحق أن يفيق من أوهامه ، وأن يخضع ويركع ويهان ، وأنه يقف صارخا من الهول أمام الشهود ، أنه امرأة .. وهكذا يشعر شوكت بالراحة ، وتنسجم نفسه ومشاعره الدفينة مع ماحوله من مشاعر ونفسيات . لذلك كان نداء زهدى محاولة ميثوسا منها ، فما يواجهه شوكت فى هذا الرجل القصير الربعة ذى الرأس الضخم ، ليس تنفيذا تعليمات ، ولا اشرافا على مساجين وتأكيد النظام بينهم ، أن ما يواجهه هو معنى حياته كلها ، فاما هو ، واما هذه الكتلة الصامدة التى يعلوها الشعر الاشيب والتى تنظر اليه بعينين غير خاضعتين .. أن صمود ذلك الغبى هو التحدى المستحيل لشوكت ، الذى تورط فى المواجهة ولم يعد هناك مهرب منها .

صاح شوكت وقد غلبه الانفعال على غير عادته :  
- فول أنا مره .

وجعل يردد الطلب صارخا ، ثم انفجر فاقتدا صوابه قانهال على الرجل بالصفعات واللكمات والركلات فى بطنه وفى قصبة ساقه .. والرجل كأنه لا يحس ، لاشك أنه رغم تقدم سنه كان يتمتع بقوة جسدية لا بأس بها ، وكان يتمتع بقدرة تحمل عجيبة ، فمن الذى يحتمل كل هذا ، دون أن يدافع عن نفسه ، ولا يصدر عنه تأوه أو أنين أو أى شيء . وكان شوكت لين الجسد ، فيه طراوة .. ولم يتعود على الضرب ، فلم تحتمل يداه وساقاه ما أقدم عليه من عنف ، وشعر باللم شديد فى ذراعيه وساقيه ، فصاح بالرغم منه بعد ركلة وجهها الى ساق الرجل .. وكان صوته أشبه بالولولة .. لفت أنظار وحوشه الذى تركوا ماكانوا فيه واندفعوا الى شوكت ليتلقفوه مع زهدى وهو يترنج ، حتى استعاد توازنه ، فواجه وحوشه يسبهم ويشتمهم ، معلنا أنه سينزل بهم أقصى عقاب ، لأنهم تركوا هذا .. مشيرا الى الرجل . كيف لم يخلع ملابسه ، كيف لم يضربوه .. كيف لم يهتكوا عرضه .. كيف .. وكيف .. كان الوحوش يستمعون فى ذهول ، ولا احد منهم يجرؤ على الاقتراب من الرجل ، ولعلهم لم يفهموا كلام شوكت أو تشككوا فيه ، حتى صرخ فيهم أن يهجموا عليه . فتقدم واحد وضربه بهراوة على ذراعه ، وامره أن يخلع ملابسه .. فلم يتحرك الرجل .. فصاح شوكت ..

- مزقوه .



وانهالت الضربات ، بطيئة اول الامر ، ثم اشتدت ، وتدافعت ، ولم يعد أحد يدري ما الذى يضربه ، الكل محيط بالرجل وهراوة ترتفع وهراوة تهبط ، وهراوتان وثلاث وعشر هراوات ، ترتفع وتهبط ، وتضرب وتضرب وتضرب ، وأصوات ارتطام مكتومة ترتد من الجسد المربع القصير ذى الرأس الضخم ، والدم ينبثق وينشال على وجهه وصدره ، وفقد زهدى قدرته على التفكير ، وتخلت عنه خبرته ، وغرق فى المشهد واللحظة ، وقد تركزت فى صدره رغبة واحدة وكأنها أمنية العمر ، لو كان يملك لنذر للسماء شيئا لتحقيق الامنية ، أن يسقط هذا الجسد القصير المربع ذو الرأس الضخم على الأرض ، لم يعد الجسد جسدا .. لا قصيرا ولا مربعا ولا رأسا ضخما . تحول الى شيء غامض تحقد عليه ، يتحداه ويهينك بصموده ، وعدم سقوطه ، ولا يدري زهدى ما اذا كان قد أشترك فى الضرب فى تلك اللحظات التى كان لا يحكمها عقل ولا تدركها حواس . فكل ما كان يجرى كان مختلطا مضطربا ، وهو لم يتبينه ولم يتذكر تفاصيله ويسترجعها الا فى مناسبة يصفها بأنها كانت عجيبة . ويخيل الى انه يكذب وهو يستحضر هذه المناسبة . ولكنه يريد منى أن أستمع الى المشهد الختامى ، بعد أن يأخذنى من يدى الى مكة والمدينة المنورة وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، هل هو يخدعنى .. أم يخضع نفسه . على أية حال يكفينى أن أسجل الآن الصورة كما قدمها لى ، لقد وقف أمام شباك النبى فى المدينة المنورة ، يطلب وساطته فى قبول التوبة عند الله ، وأن يغفر له ذنوبه ماتقدم منها وما تأخر . وانهمرت الدموع من عينيه — هكذا كان يقول لى — بصوته الفاجر ودون أن يبدو عليه أى مظهر للتأثر الحقيقى . وكأنه يعتقد انى سوف أصدق له مجرد أنه يرفع صوته بالكلام .. المهم أنه يقول ان دموعه تسلسلته وطهرته ، وأنه كان يرى الذنوب التى ارتكبها قائمة مصورة فى عينيه وهو يبتهل ويتوسل فى حضرة سيد المرسلين ، كل ذنب مهما صغر أو كبر ، أهمها ما كان يصدر منه نحو امه من ألفاظ وتصرفات .. فهذه كان يراها فتتهطل دموعه كالطر المنهمر ولا تفسلها الا بصعوبة .. وكان من بين ما رأى ذلك المشهد الذى كان يتمناه فى ليلة حفلة السجن ، مشهد سقوط الرجل .. وعرف أنه كان يتمنى سقوطه حتى يتخلص مما يلاقيه من عذاب .. والذى عرفه زهدى فى تلك الصورة التى رآها من خلال دموعه فى الحضرة الشريفة ، هو أن الرجل مات واقفا



وأن جسده المربع احتفظ بتوازنه لفترة من الوقت فلم يسقط، وعندما سقط الجسد ، كان بسبب ركلات فى بطن الركبة ، فانشنت الرجل ، فتداعى الرجل على ركبتيه وجسده قائم منتصب ولكنه كان ميتا . وكانت الضربات والركلات مازالت تلاحقه ، لأن هينيه ظلنا مفتوحتين تنظران فى جمود واستخفاف ، ولا أحد يذرى أنها نظرات موت . ثم سقط الجسد على الأرض . ويعتقد زهدى أن الله قد غفر له تماما هذه الجريمة ، التى يتحدث عنها ، وكأنها خطأ فنى وقع فيه ، وكانت له نتائج السخيفة التى مازال يعاني منها .. ثم أراد عند هذه المرحلة من الحكاية أن يتوقف ، وأن يتحدث مسمى عن تو .. وتلك الحالة الهستيرية التى تملكه ، فتجعله يتحدث رجال الشرطة \* وقال لى أنه لم يسمع بها من قبل .. ونظر الى فى حذر لا أظن أنه كان موجهها الى ، ولكنه حذر مما قد يكون فى رأسه من خيالات وتوقعات عن « تو » .. اذ قال فجأة :

— الولد .. أنا أعامله وكأنه ابنى تماما .

ونخيل الى انى أسمع نكتة ، فابتسمت على الرقم منى ، فما هذا السمك اللبن التمر هندی ، ما هذا الجنون والاختلاط فى المشاعر ، الذى يعاني منه زهدى ، بحيث أنه يعترف لى بأنه أشرف على قتل والد تو ، ثم يختتم الاعتراف بأنه يعامل ابن القتل كأنه ابنه .. مرة أخرى ايقنت أنه كاذب ، وهو اما يكذب على وحدى أو يكذب على نفسه أيضا .. وهذا احتمال بعيد .. فهو أشد فجورا من أن يخدع نفسه ، وما حديثه عن التوبة والحج وقبر الرسول وأبوته لثو ، إلا صور يتحلى بها ، ولكن أهميتها اقل بكثير عند رجل مثله ، من أهمية رباط عتق يراه فيعجبه ، سواء يراه فى فتريئة دكان فيشتره أو يراه فى حلق والد تو فيقتله .

ومع ذلك ، لابد أن أتروى فيما أقول ، ولعل الأفضل ألا أشغل نفسى بقضية زهدى الشخصية ، قبل أن أسجل تلك المواقف القريبة التى تعرض لها بسبب مقتل والد تو .

لقد سقطت الجثة على أرض حوش السجن . فماذا بعد ؟

## الفصل السادس

ان مقتل سجين ليس بالمسألة الهينة ، فكان لابد من التصرف بسرعة ، لقطع دابر الاشاعات والاقاويل . ولكن كيف يتصرف زهدى أمام عشرات الشهود ، اكثر من مائتى عسكري وضابط وسجين ، كل من شهد الحفلة كان شاهدا لمصرع الرجل ، والشاهد ايا كان مصدر للخطر ، وانت لا تضمن العساكر ، وما قد تلوكه السنتهم ، ومهما كان ولاؤهم ، فقد يصدر عنهم أى شئ ، أغلبهم جاهل ينثر ، أو يتباهى أو تنتابه حالة من حالات الشفقة والضمير ، كل الاحتمالات قائمة تفغر فمها ، كان العساكر هم الجانب السهل من الشهود ، أما الجانب الذى لا تستطيع أن تسيطر عليه ، والذى كان من المتوقع انفجاره ، فهو جانب المعتقلين ، ولا يمكنك أن تعالج المشكلة بأن تجمعهم وتحرقهم فى قرن كما كان يفعل هتلر وتتخلص منهم ، وأصر زهدى على أن أفكر معه ، أو على الاصح أن أتبع منطق تفكيره فى موضوع هتلر ، وكانت وجهة نظره ان العقلية الالمانية صاحبة الامتياز الهائل فى التنظيم والدقة والانضباط لم تستطع أن تكتشف وسيلة لاختضاع المعتقلين أفضل من حرقهم فى الافران ، فما بالك ونحن فى بلد لا يعرف النظام ويعانى من الهرجلة والفوضى وضعف الضبط والربط لابد فى مثل هذه الحالة أن تنطلق الاشاعات وتنتشر الاقاويل هنا وهناك ، وتتحول الحبة الى قبة ، وتتضخم المسائل ، ولا يعانى من هذا فى نهاية الامر الا المساكين الذين تحملوا المسؤولية على أكتافهم من أمثال زهدى وشوكت ، والغريب أن زهدى كان يتحدث عن هتلر وكأنه لم ينهزم ، ولم ينفصح أمره بسبب استخدام الافران ، فما زال هتلر بالنسبة له ، هو هتلر العظيم ، الفوهرر الذى لا يقهر ، أما كيف يتمسك زهدى بهذه الآراء التى تحطمت تاريخيا ، فأمر محير لا يستطيع تفسيره الا بجهله المطبق . وبعد أن حدثنى عن افتقاده للافران ، ذكر لى كيف أنه كان أسرع الحاضرين الى استعادة اثرانه بعد موت الرجل والذى ساعده على ذلك ، أنه فوجيء بالانهيار الكامل الذى أصاب شوكت . فقد ظل يصرخ فى رجاله أن يرفعوا الجثة ، وهو مصر على ان الرجل مازال حيا ، وأنه يتحارب بالرقاد ، كان مغنيظا بأثسا ، يتلهف

الى رؤية الرجل وقد وقف من جديد ، وكان يتلفت حوله غير مصدق .  
أن وحوشه المدربين يتراجعون فزعين مذعورين خوفاً من جثة أكسبها  
الموت هيبة وحرمة . حتى أن الصراع نشب بين شوكت ووحوشه .  
فهو يصرخ فيهم : أوقفوه ، اجعلوه ينهض . فيتقدمون نحو الجثة ،  
خائفين من صرخات شوكت ، ثم مايكاد الواحد منهم يمسك بالجثة ،  
فيجدها متصلبة تجمدت الدماء عليها ، حتى ترتعش يده « ويهمس  
« الرجل خالص » ، فيجن شوكت ، ويشتمهم ويهجم عليهم ، يدفعهم  
نحو الجثة دون أن يقترب هو ، وتكرر المشهد ، فلم يعد هناك مفر من  
أن يتنبه زهدى الى خطورة الموقف ، وكان حازماً ، فأمر الجنود بضرب  
حصار على بقية المساجين الذين كانوا فى مرحلة وجوم وذهول ، مما  
عطل قدرتهم على التظاهر برد فعل سريع ، وأصبحت الدقائق لها  
قيمتها ، فأصدر الأمر بادخال المساجين العنبر فوراً ، وصاح فى  
نفس الوقت بأعلى صوته متعمداً أن يسمعه الى الجميع :

— أنقلوه الى المستشفى . .

وتقدم ثلاثة عساكر ، وحملوا الجثة ، وزهدى يتابعهم بصيحاته  
التي تعمد أن تكون مسموعة ، طالبا من العساكر أن يعودوا بالرجل  
الى الزنزانة ، بعد أن يعالجه الطبيب . كانت مئات العيون ترقبه  
ومئات الاذان تنصت اليه ، وكل كلمة يقولها الآن ، سوف تسجل  
فيما بعد فى محاضر تحقيق . لا بد أن يجهز الادلة التي تؤكد أن  
الرجل لم يمت امام أحد . بدليل أنه طلب نقله الى المستشفى لعلاج  
بدليل أنه أمر بعودته فوراً الى الزنزانة بعد انتهاء العلاج . لماذا  
سقط ؟ آه . . لقد سقط لان نوبة أصابته . نوبة قلبية . كانت الادلة  
تتزاخم فى رأس زهدى ، وكلها أدلة نفى لوت الرجل الذى مات ،  
لولا صراخ شوكت وأنهياره ، الذى فقد عقله تماماً ، لانه لم يتحمل  
أن يموت الرجل قبل أن يثبت لشوكت انه ليس رجلاً . مقلب نظيف  
شربه شوكت وكانت فيه نهايته ، ولكنه من فاحية أخرى ساعد  
بتصرفاته الخرقاء على اقناع الآخرين بأن الرجل مازال حياً ، وامسك  
زهدى بيد شوكت وجذبه الى بعيد ، وقال له بلهجة حاسمة انه يجب  
أن يترك المكان فوراً ، وان عليه أن ينتظره فى المكتب ، ونظر اليه  
شوكت فى هلع وقال مرتعداً :

— حاضر يا أفندم . .

وأسرع يغادر المكان . وفى دقائق كان الحوش خالياً الا من واحد  
من السجائين كان يقوم بتنظيف الارض من بقع الدماء ، ويجمع ما وقع

فى ساحة المصمعة ، من ملابس وحطام نظارات . وطبعاً كان لابد من تسوية الموقف بسرعة وقبل أن يطلع الفجر . تقرير من الطبيب الشرعى بأن الرجل مات بالسكتة القلبية . وتشريح الجثة ، واثبات عدم وجود كسور فى الجمجمة او الحوض ، يكفى أن يسجل التقرير بضبع سحجات ورضوض نجمت عن سقوط الرجل اثر اصابته بالسكتة القلبية ، عملية ليس من السهل القيام بها ، ولكنها ممكنة ، ولقد قام بها زهدى على احسن وجه ، ويعترف بأنه كان قلقاً ، ولكنه لم يفزع ، فمثل هذه الحوادث متوقعة ، وهى تحدث أحياناً ، وإن كان غير مرغوب فيها ، والعرف السائد هو حماية من قام بالعملية ، والتكتم عليها ، وأفضل أسلوب للتكتم ، هو أن تأخذ الإجراءات مجراها ، المحاضر والاوراق والسجلات تستوفى ، بحيث يكون هناك تحقيق جاهز تحت الطلب ، يشرح اسباب الوفاة ، وهذا هو المهم ، أن تحقيقاً قد أجرى ، وانتهى الى نتيجة محدودة ، تؤكد أنه لم يحدث خرق للقانون . ان الدولة لا تريد أن تفضح نفسها ، وهى تقدر أن الذى أقدم عليه شوكت وزهدى ، كان من أجل تأكيد سلطتها ، وضد أعدائها ، ولكن هذا لا يعنى الاعفاء من اللوم ، فالرؤساء لا يريدون المواقف المخرجة ، هذا فضلاً عما فى حدوث الوفاة من دليل على عدم الخبرة بفنون الضرب ، ويعتقد زهدى أن هذا الاتهام بعدم الخبرة ، هو أخطر الاتهامات ، فهو أخطر من اتهامه بالشكليات كخرق القانون ، واستعمال القسوة ، وغير ذلك من الكلام الذى لا قيمة له من الناحية العملية . أن الذى يعنيه فى المقام الاول ، هو « الحرفنة » كما يقول ، ومقياسها بالنسبة له أن تضرب من تشاء وتفتك بمن تشاء ، وتسوم أى واحد كل ألوان العذاب ، بل وتصل به فعلاً الى حافة الموت ، ولكن دون أن يموت ، ودون أن تترك فى جسده آثاراً فاضحة ، تشهد على الضرب والتعذيب . هذا هو الفن ، وهذا هو مقياس الخبرة والكفاءة ، وماعداه من حديث عن حقوق السجين ، والمعاملة الانسانية والقانون فكلام ساذج لا يصدقه إلا السذج ، ولا يعترف به أحد فى أى سجن من سجون العالم . كان زهدى يقول فى انفعال : هل تصدق أنهم يعاملون المساجين فى أمريكا معاملة انسانية . ثم يصدر شخيراً من أنفه ، ثم يسألنى : وهل يحدث هذا فى روسيا ؟ . ويصدر شخيراً أطول ، ثم يسألنى : هل يحدث هذا فى نيام نيام ؟ ثم يصدر شخيراً غريباً . . . ثم ختم شرحه قائلاً : حتى فى المعتقل الذى أعده ربنا سبحانه وتعالى للكافرين المذنبين ، هل

بعدهم بالمعاملة الانسانية . هل قرأت وصف ما يلاقونه من عذاب ،  
وأسيخ محمية ونيران تشويهم ، اذن لماذا نخدع أنفسنا ، ونقول ان  
المساجين يجب أن يعاملوا معاملة انسانية .. هذا كلام ساذج ، وكل  
ما هو مطلوب أن تكون المعاملة بفن وحنكة . المطلوب هو أن تعذب  
لا ان تقتل . تماما مثلما يحدث فى الجحيم ، تعذيب لا قتل . واختتم  
زهدي شرحه قائلا لى : هل فهمت يا أستاذ ؟ .. لعلك تكون قد  
استفدت حتى تكفوا عن كتابة كلام أهبل عن المعاملة الانسانية للمذنبين  
ولقد تمت الاجراءات التى أعدها زهدي بسرعة ، ودقنت الجثة بغير  
جنازة ، ولم يسمح لاهل الرجل بمشاهدتها ، الا فى كنفها ، وكانت  
زوجة الرجل مدرسة فى روضة اطفال « ... » ، وكان الرجل  
مدرسا أول للمواد الاجتماعية بمدرسة : « ... » الثانوية ، وكانت  
المعلومات الواردة بالملف الخاص به ، تقول عنه ، انه فى التاسعة  
والاربعين من عمره ، وأنه أب لثلاثة أولاد كلهم ذكور ، أكبرهم « تو »  
الذى كان وقتها فى العاشرة من عمره . وكان الرجل عضوا بارزا فى  
اللجنة المركزية للتنظيم الشيوعى « ... » الذى يدعو الى الكفر  
والالحاد والفوضوية وينشر دعوة الاباحية التى تسمح بتبادل الأزواج  
لزوجاتهم ، وتبيح للرجل أن يقفز فوق أى امرأة أينما شاء فى الطريق  
العام ، أو فى حديقة عامة ، واصحاب مثل هذه الدعوة مصيرهم  
جهنم ، وما كانوا يلاقونه من عذاب على يد شوكت وفرقة ، ما هو  
الا ذرة أو قطرة من محيط العذاب الذى سوف يحقق بهم فى الآخرة  
وقد بلغ من سفالة ذلك الرجل ، انه كان مستغفلا ابنه « تو » وهو  
طفل فى نقل الرسائل والاوراق بينه وبين زملائه فى التنظيم ، وكان  
أغلب نشاطهم موجه الى منطقة شبرا الخيمة ، ووسط تجمعات  
العمال ، وكانت كل تحركاتهم واسمائهم الحركية ومنشوراتهم وخططهم  
تقع أولا بأول بين ايدي الشرطة . لان من السهل أن تجد بين هؤلاء  
المنحليين من يبيع أصحابه مقابل قرشين . وبينهم من يقبل أن يدخل  
معهم السجن ليتجسس عليهم داخله ، انهم لا يستحقون أى عطف أو  
شفقة ، ورغم ذلك كان لابد فى مواجهة الموت من اتخاذ اجراءات  
تكسر من حدة ردود الفعل ، كصرف اعانة للزوجة ، وطبعا لابد من  
التكفل بمصاريف الجنازة ، ثم وضع الاسرة تحت المراقبة الشديدة ،  
لمعرفة اتصالاتها ، وقطع الطريق على محاولات من أفلت من السجن  
استخدام الزوجة فى اثارة ضجة حول موت الرجل .

وقد خيل الى زهدي أول الامر انه استطاع انقاذ الموقف وتفادى

اية ضجة . وكان سروره كبيرا عندما عرف أن تقارير المراقبة تقول أن الاولاد في مدرسة « تو » يتحدثون عن والده كمجرم ، وجاء في أحد التقارير ان « تو » نفسه ، كان يشارك الاولاد في اتهام والده ، وأنه كان خجلا من واقعة القبض عليه وذهابه الى السجن ، وكان أحد المدرسين قد سأل أحد الاولاد الذين يخالطون « تو » عن حالته بعد موت أبيه في السجن ، فقال الولد أن « تو » قال له أنه أسترح بموته ، وأن والده كان دائم الشجار مع أمه ، وكان « تو » واخوته ضحية لهذا الشجار . وكانت هذه هي كل المعلومات التي جمعها زهدى عن حياة الرجل بعد دفنه ، واكتفى بها ، وقد اطمأن الى أنها بشر بأن كل شيء سوف يكون على مايرام . وكان اهتمام زهدى الأكبر منصرفا الى المعتقلين في السجن من ناحية ، وشوكت وفرقة من ناحية أخرى . فأما المعتقلون ، فقد قرر زهدى أن يغير سياسته معهم ، ولكن بالتدريج ، حتى لا يشعروا بأنه خائف منهم قرر أن يرشوهم تدريجيا ، بالسماح لهم بالسجائر . وبعض المجلات ، وغير ذلك من الاشياء التي يستطيع أن يسمح بها أو يمنعها عنهم وقتما شاء . وكان واثقا من نجاح خطته ، ولكن المتاعب بدأت يوم سمح بدخول الطعام الذي يرسله لهم اهلهم . فقد فوجئ بالاخبار تأتي اليه بأنهم رفضوا قبول هذا الطعام واكتفوا بالقول المسوس الذي يقدمه لهم السجن ولم يصدق . فليس من المعقول أن يجرموا انفسهم مما جاء في الصواني والحل ، وذهب زهدى يتفقد الحال بنفسه ، وكانت هذه أول مرة يواجههم فيها منذ ليلة الحفلة . وسألهم وقد رسم على شفثيه ابتسامة بشوش ودود . لماذا لا يأكلون ، واذا بهم ينظرون اليه في صمت مريب ، ولا أحد يجيب ، وفحص الطعام ، وامتدحه ، ومد يده ، وتذوقه امامهم ، مشجعا لهم على الاكل . كان مجرد رؤيته وهو يأكل كفيلة بأن تسيل اللعاب من أفواههم . وقد لاحظ بالفعل أن أكثر من واحد ينظر اليه ويلمع ريقه ، واذا بواحد منهم له وجه فأر ، عيناه جاحظتان من قصر النظر ، ولا بد أنه كان يستخدم نظارة وتحطمت في الحفلة ، وقال له وجه الفأر :

لن تأكل هذا الطعام ؟

قال زهدى :

— ولكن هذا ليس طعام السجن .. لقد جاء به اهلكم .. زوجتك .. أو أمك أو شقيقتك .. هي التي طبخته .. فما ذنبها ..

قال وجه الفار :

— ولماذا تسمح لنا به ..

قال زهدى ضابطا لأعصابه :

— وهل تريد منى أن أمنعه ..

فاذا بالولد يقول فى تحد :

— هذه رشوة لا نقبلها ..

قال زهدى متعجبا :

— أى رشوة .. تعنى ..

قال الولد محتدا :

— لو أكلنا هذا الطعام .. فنحن نأكل لحمه . ونشرب دمه .

وهنا انفجر آخر صارخا :

— نحن مستعدون للموت كما مات هو .

وصاح زهدى هادرا :

— اخرج يا كلب أنت وهو ..

ومنذ تلك اللحظة ، أدرك زهدى أن تعقيدات كثيرة سوف تحدث وأن علاج الموقف فى أحد أمرين لا ثالث لهما ، أما أفران هتلر ، وإبادتهم جميعا ، أو إخفاء هؤلاء الشهود فى مكان ناء قصى لا يعرفه مخلوق ، ولا يصل اليه الجن الأحمر .. وبما أن الأفران ليست متوافرة للأسف فقد لقي اقتراحه بإبعادهم الى معتقل فى الواحات ترحيبا كاملا .. والى هناك ساقوا كل شهود حوادث القتل والتعذيب فى هذه القضية ، وفى القضايا الأخرى ، بعضهم شيوعيون ، وبعضهم من الإخوان المسلمين ، وكانوا أكثر خطورة من الشيوعيين ، لأنهم مدربون على السلاح ، وأجسادهم قوية ، الواحد منهم كالحصان على عكس الشيوعيين ، المسلولين ، ولكن حدث قبل نقل المعتقلين من السجن الى الواحات ، أن تقدمت الى النيابة عشرات البلاغات تتهم شوكت وزهدى بقتل الرجل ، صاحب هذه البلاغات منشورات تصل الى كل المسؤولين فى خطابات عن طريق البريد ، وذات يوم وقبل نقل المعتقلين بأيام ، أبلغوا زهدى أن النيابة قادمة للتفتيش على السجن وأجراء تحقيق فى وفاة الرجل . واستعد زهدى للمناسبة فأخفى المعتقلين فى زنايات بعيدة يكسل المحققون عن الوصول اليها ، وأشرف على سير التفتيش وحركته ، بحيث يلتقى المحققون ببعض المسجونين الذين يشهدون بأن شيئا لم يحدث فى السجن فى ليلة رأس السنة الجديدة ، واستمع المحققون الى الشهود ، ودونوا الأقوال

واقفلوا المحاضر وهموا بالانصراف ، وبينما هم فى الحوش ، اذا بنفس الولد اللعين ذى وجه الفار يتسلق نافذة الزنانة ويصرخ بأعلى صوته :

— يا نيابة .. تعالوا اسمعوا اقوالى يا نيابة ... انا اطالبكم بالتحقيق فى الجريمة التى ارتكبوها .. وشهدتها بعينى .. قتلوا « ... » امامى وامام رفاقى .

كيف عرف بان النيابة قادمة ؟ وكيف عرف بان هناك تحقيقا يجرى فى ذلك الوقت بالذات ؟ واضح ان الامر يستفحل ، وهناك من يتجسس على ادارة السجن وينقل اخبارهم الى المعتقلين . وهذا خطر ، فعندما تتشكك فى السجنائين او الضباط تتوقع ان يفلت الزمام فى أية لحظة ، ووقف رجال القانون ينصتون الى الصيحات ، وتجاهلت انى اسمع اى شىء . ولم تفلح الابتسامات ولا الثرثرة بأى كلام . ان رجال القانون تنقصهم المرونة فى مثل هذه المواقف . وسأل رئيس المحققين :

— من اين يصدر هذا النداء ..

قال زهدى :

— اى نداء يا افندم ؟

فاحمر وجه المحقق ، وقال فى غضب مكتوم :

— اذهب الى هناك ..

وتحرك زهدى ، وهو يتظاهر بعدم الاكتراث ، مرددا ان بعض المساجين تظهر لهم رؤى وخیالات تجعلهم أشبه بمرضى مستشفى المجاذيب .. فما كان من المحقق الا أن وقف ، وطلب منه ، ان يكلف احدا بالذهاب معه . وكان مغزى هذا الطلب واضحا ، ان يكون زهدى بعيدا عن مكان التحقيق ، حتى لا يؤثر بحضوره فى أقوال الصارخ الشاكى .

واتجهوا الى الزنانة وسمعوا اقوال المعتقل ، وسجلوا فى محضر التحقيق كل شىء ، وكان خطأ فنيا آخر تورط فيه زهدى ، لو كان اتخذ احتياطاته كما يجب ، لما وقع هذا الحادث الذى يعنى مزيدا من الاحراج . ليست الافران الهلترية أفضل ، انها الضمان الوحيد امام حالة عدم الانضباط . النى تؤدى بالسجنائين أو بعض الضباط الى افشاء الاسرار ، ومع ذلك فاجراء التحقيق شىء والوصول به الى نتيجة شىء آخر ، والذى تعرض للمحاكمة التأديبية هو شوكت ، وقد تقرر فصله من الخدمة . وكان لخروجه خسارة كبيرة لا تعوض ،



فهو رغم كل شيء كفاءة نادرة في التنظيم والتدريب ، وقد وقّع عليه قرار الفصل كالصاعقة ، ولكنه استطاع أن يتماسك ، وتلقفه شيخ صاحب ملايين ، يعيش بملايينه حياة أبى نواس ، واستطاع شوكت معه ، أن يعمل فى الاستيراد والتصدير وعاش فى جنيف ، كملك يركب أحدث عربات المرسيدس ، والبويك . وقد قابله زهدى فى مطار روما اثناء رحلة قام بها الى الخارج ، فقال له انه يصرف فى اليوم الواحد أكثر من مائة جنيه ، ومع ذلك فهو يشعر بمرارة ويفتقد حياته مع فرقته وشهرته وهيلمانه فى السجون . وهذه الرحلة بالذات لها قصة جاء أوانها ، كان زهدى عضواً فى وفد ذهب الى « . . . » لحضور مؤتمر دولى عن السجون ، وهنالك ، استدرجوه الى ندوه ، ذهب اليها بحسن نية ، ودخل قاعة مزدحمة بحوالى ألف شخص ، واجلسوه مع آخرين فى المنصة حول مائدة عليها الميكروفونات ، والتف حولهم المصورون يلتقطون لهم صوراً فوتوغرافية وسينمائية وتليفزيونية ، وكان المفروض أن يتحدث كل واحد من الجالسين على المنصة ، وهم من جنسيات مختلفة ، عن تطوير نظام السجون فى بلده . وكان زهدى قد أعد بحثاً قصيراً مناسباً لا يتعدى القاؤه باللغة الانجليزية عشر دقائق ثم يترجم الى لغة البلد فى عشر دقائق أخرى . وافتتح رئيس الندوة الجلسة وألقى بضع كلمات لم يفهما زهدى ، ولكن اسماً عربياً سمعه ، نطقه المتحدث ، فارتطم بأذن زهدى ، كان اسم الرجل الذى مات فى السجن فى تلك الليلة المشهودة . وقبل أن يفிக زهدى من المفاجأة ، اذ بالجميع : من يجلسون على المنصة ، والالف الذين يجلسون فى القاعة كلهم يقف صامتين ، ما الذى يجرى ما الذى حدث . . انهم يقفون حداداً ، هكذا يقول المترجم . حداداً على روح شهيد الطبقة العاملة الذى استشهد فى السجون المصرية . . ووجد زهدى نفسه يقف مع هذا الجمع الفقير وقد ساد بينهم الصمت ، وكانهم جميعاً يتفلسفونه بنظراتهم ويلفحونه بأنفاسهم الحارقة . سخنت رأسه ، وبذل جهداً خارقاً ليبدو وكأن شيئاً لم يحدث ولا يدري كيف قرأ بحثه ، ولا كيف أنقضت الندوة . . وكان بعض زملائه جالسين فى القاعة ، فانضموا اليه ، وتخلصوا من المترجم المصاحب لهم ، وعادوا الى الفندق مسرعين يتداولون الامر . هل أخطأ زهدى بالوقوف ؟ هل كان يجدر به الانسحاب ؟ ما الهدف من هذا المقلب الخبيث ؟ قالوا كلاماً كثيراً ، وزهدى يستمع اليهم مستسلماً وقد أرهقه الموقف فلم

يعد قادرا على الكلام أو الانفعال أو عمل أى شيء ، كان كل ما يحس به رغبة فى القيء تجمىء وتذهب ، ولا يستطيع أن ينهض متوجهسا الى دورة المياه ليفرغ مافى جوفه . حتى هبط عليهم وهم جالسون فى بهو الفندق ، أخذ رجال السفارة المصرية ، وطلب منهم ان يذهبوا معه فوراً للقاء السفير ، وبدأت الحياة تدب فى جسد زهدى من جديد ، وجلس بجوار رجل السفارة الذى كان يقود السيارة بنفسه ، وانطلق يشتم ويسب هذه الافعال الشريرة التى ارتكبها هؤلاء الاوغاد الملاحدة . لابد من الاحتجاج لابد من الاعتذار لابد من مقادرة الوفد لهذا البلد فوراً ، مثل هذا الحادث جزاؤه قطع العلاقات الدبلوماسية فى الحال . كان حماس زهدى يزداد اشتعالا والتهابا ، وزملاؤه يشجعونه ورجل السفارة يؤكد له أن ماحدث ستكون له أوخم العواقب حتى دخلوا على السفير الذى كان ينتظرهم فى قاعة فخمة واسعة بالسفارة .. وما كاد يرى وجوههم المحتقنة ويسمسم كلماتهم المتهبة . حتى بدا عليه الانزعاج . وإذا به يقول لهم فى لهجة حاسمة آخر ما كان يتوقعه زهدى .. أنتم لا تعرفون سياسة بلدكم .. انى أحذركم من اثاره أى ضجة من أى نوع :

— لا احتجاج ولا انسحاب ..

والتفت السفير الى زهدى وقال له :

— ان تصرفك كان عظيما .. عندما وقفت حدادا على الرجل

الذى مات .

انهم يعتبرونه شهيدا ، وليس لدينا مانع فقد كان ماركسيا مثلهم .

ووقع فى يد زهدى ، بينما قال زميل له فى الوفد :

— ولكننا يا سيادة السفير لسنا ماركسيين ..

قال السفير فى هدوء :

— طبعا .. ولكن هذا لا يمنع من أن نكون أصدقاء ..

صاح الرجل :

— انهم يتهموننا بقتله .

قال السفير بلهجة باردة خالية من أى انفعال :

— فى كل مكان فى العالم تحدث مثل هذه الاخطاء .

فى تلك اللحظة ، عرفت زهدى أن نهايته قد اقتربت ، ولزم

الصمت ، ولم يعبا بما يقدمه السفير من شرح وتحليل سياسى ، حتى عندما قال السفير .. أن كل هؤلاء المعتقلين فى الواحات سيوف

بفرج عنهم .. قابل زهدى الخبر بعدم اكتراث . عرف انها شهوور  
ويخرج محالا الى المعاش .. وتذكر لقاء الصدفة الذى كان بينه وبين  
شوكت فى مطار روما وهو فى طريقه الى ذلك البلد . هل يمر على  
شوكت فى جنيف أثناء عودته . ويسأله أن يشركه معه فى أعماله ،  
ولكنه لا يستطيع أن يترك وحيد حسن ، الافضل أن يركز جهوده  
فى أرضه بكفر الدوار . ويعيش فى الاسكندرية ، ويصرف جهوده  
فى الأعداد لمستقبل ابنه الوحيد . أقسم زهدى . أنه رأى كل هذا  
المستقبل ، وهو جالس فى تلك القاعة الفخمة التى استقبلهم فيها  
السفير . رأى كل شيء كما حدث تماما . ولكنه لحظتها لم ير هجرة  
ابنه حسن ، ولم ير لقاءه بتو . وبعد أن خرجوا من السفارة ، تحول  
زهدى الى شخص آخر ، كان لا يثق فى شيء ، وثار شكوكه حول  
ما قد يحدث له من ورطات ومقالب أخرى ، وكان يتلفت حوله  
فيخيل اليه أن الجميع يراقبونه ويعرفونه ، فخاف على نفسه ،  
وراودته الأفكار عن احتمال اختطافه ، أو الاعتداء عليه ، ولكنه لم  
يفصح عن شعوره هذا لأحد . كان يعلق على نفسه باب حجرته فى  
الفندق بالمفتاح والترباس ، ويحكم اغلاق النوافذ فيشعر بالاختناق  
ويتصل بزملائه فى الحجرات المجاورة .. ويوقظ من نام .. وقد  
يذهب الى حجرة واحد منهم ويظل يثرثر معه حتى الصباح . يقول  
أى كلام فارغ ، أى شيء ، ويسب نفسه ، وصاحبه ويروى نكتا  
جنسية ، يقول أى شيء لا يؤخذ عليه كموقف سياسى ، ولم يتخلص  
من هذا الكابوس بعودته الى مصر ، فقد بدأت الرؤى التى تكشف  
له ، وهو مع السفير ، تتحقق الواحدة تلو الأخرى ، تغيرت سياسة  
البلد ، وتغيرت المناصب ، والذين كانوا يحمونه بالامس تخلفوا عنه ،  
وبدأوا يتحدثون بلغة أخرى ، كلها من نوع السجع الاشتراكى الشيوعى  
التقدمى الى آخر هذا الكلام الذى يقول زهدى أنى أعرفه جيدا وانا  
به فى سوق الصحافة . وجاء اليوم الذى صدر فيه بالفعل قرار  
أحاطه على المعاش ، وقال لنفسه مواسيا أن آخر خدمة الفز علقه .  
وأنه دائما يوجد الفز ويوجد من يخدمهم ، وتنتهى الخدمة فى كل  
الأحوال ، وفى كل زمان ومكان وتحت أى ظروف بالعلقة . وكان  
خروج زهدى الى المعاش أيدانا بخروج المعتقلين والافراج عنهم بعد  
شهرين ..

وهنا تشنح زهدى وهو يسألنى :

- بماذا تفسر خروج هؤلاء الذين اتهمناهم بالتخريب والتدمير والارهاب والهدم ، ماذا تفسر اعطاءهم المناصب والمراكز .. ماذا تفسر أنهم يهللون لنفس السلطة التي اعتقلتهم ..  
قلت له : هذه هي السياسة ..  
فصاح :

- ملعون أبو السياسة ..

ثم سألني بحرقه :

- ولماذا لم يضربوا عن المناصب .. كما أضربوا عن الطعام الذي أرسله لهم أهلهم في السجن .. لماذا قالوا لا نأكل هذا الطعام لانه لحم القتل ودمه .. ولم يقولوا لا نجلس على مقعد هذا المنصب أو ذلك .. لانه من عظام صاحبنا القتل .

وجدتني أقول له وأنا لا أهي ما أقول :

- ربما كانت الاجابة على سؤالك عند تو ..

فسألني في دهشة :

- ماذا تعنى ؟

قلت له :

- لا أعرف ، ولكنك سوف تساعدني ، لو قلت لي كيف عرفت

تو .. فهم قبلوا المناصب وهذا في رأيك غريب .. وانت تقول أنك تبنيتم تو وهذا في رأيي أغرب ..

## الفصل السابع

### « تو » أو السياسة

هنا وصلنا إلى مفترق طرق ، زهدى يريد أن يشدنى إلى الحديث عما يدور في البلد من تقلبات سياسية ، يريد أن يفهم ، أو كما قال لي فيما بعد ، « أريد أن أتأقلم » أما أنا فكنت مصمماً على أن اسمع منه بقية قصة « تو » ، لقد حدث بيني وبين زهدى شداً وجذب حول هذين المحورين ، السياسة ، وحكاية تو ، وأعترف أنني لم أدرك معنى هذا الشداً والجذب ساعة حدوثه . ولكن المعنى واضح لي تماماً وأنا أسجل خطواتي ومعلوماتي في هذه اللحظة على الورق . ويخيل إلى أنني سأفهم أكثر دوافع زهدى لو تذكرت بدقة كيف جرى الحوار بيني وبينه ، وأهم من ذلك ، لعلني أكتشف بعض ما في نفسي من غموض أقرب إلى التشويه ، أحدثته تلك المخاوف التي أثارها اعترافات زهدى عن مقتل والد « تو » فبعد أن أسجل كل شيء ، يجب أن أجيب على سؤال أوجهه إلى نفسي . . هل أنت جبان ، هل أنت تعيش في مجتمع بلدك وتتعامل مع الآخرين وتكتب لهم وأنت متحكوم بالمخاوف والوان الدعر . هل أنا أنشبت بحكاية « تو » لاهرب من حكايات السلطة والسياسة بأهوالها وجبروتها ، أنني أكتب هذه الأوراق لنفسي ولن يطلع عليها أحد ، فعلى الأقل يجب أن أكون صريحاً إلى أقصى حد في هذه اللحظات بالذات . وإذا لم أفعل ، فما فائدة كل هذه المعاناة ، وأرجع الآن إلى زهدى ، والتذكره وهو يقاطعني محتجاً ، يسألني لماذا تهتم بـ « تو » إلى هذا الحد . لماذا تتشكك في تصرف إنساني أقدمت عليه عندما قدمت له المساعدة والرعاية ؟ أقرب في نظرك أن ألبى دعوة الشهامة والمروءة ، هل أصبح كل شيء في الدنيا يقاس بمقاييس الانانية والندالة ؟ أنا لست ياسيدي وحشاً ضارياً ، أنا فلاح عريق من عائلة عريقة ، وإذا كانت دواعي العمل قد اقتضت أن أقوم بعملية يقتل فيها رجل ، فليس معنى ذلك أنني غليظ

القلب ، أريد أن أفتك بكل الناس ، ثم ما هذا الذى قمت به من أجل هو ، مجرد وظيفة صغيرة حصل عليها فى النادي ، أهم منها ، هو شعوره بأن له ظهرا يحميه ، بل يتبناه . ولقد فعلت كل هذا لوجه الله ، صدقنى انه معروف صنعته وقذفت به فى البحر . ولا بد أن أسجل ، أن زهدى توقف هنا عن الكلام وكأنه يريد أن يراجع نفسه فيما قاله . ثم عاد يقول لدهشتى :  
- فى الحقيقة أنا قذفت بهذا المعروف فى صفيحة زبالة .

ولم أفهم ساعتها سر هذا التعديل الذى بدا له انه ضرورى ، فما الفرق بين أن يقول انه قذف بالمعروف فى البحر ، أو فى صفيحة زبالة ، ولماذا يتحول البحر فى خياله الى قمامة ، ولم يترك لى زهدى فرصة لتحليل أسلوبه ، فقد انطلق يدافع عن نفسه . وكأنى أتهمه بمساعدة « . . . » فجعل يردد انه لن يستفيد شيئا من وراء « تو » لا شيء على الإطلاق .

وكان زهدى يتحدث بلهجة عاطفية ، صوته يتهدج أحيانا ، ويدها ترتعشان من الانفعال ، ولم تقنعنى هذه الحالة العاطفية ، كنت أقرب الى الظن انه نصاب كبير يؤدى دورا غير متقن فى عملية احتيال كبيرة ، كان صوته قد ارتفع . . وتحول من الحديث الى الخطابة ، وتحولت أنا المستمع الوحيد الى ما يشبه الجميع الفقير . وكان ينظر أمامه وفى عينيه أعجاب بنفسه ، حتى خيل الى أنه يتأمل ملامح وجهه فى مرآة يتوهم وجودها أمامه . قلت لنفسى ، ماذا وراءك يا زهدى ما الذى تحاول أخفائه عني ، أو عن نفسك ، وبدأ صبرى يتفد ، فلم أعد أطيق استمرار الخطبة ، فلما ابتسم لى ، يدعونى الى أن أقول له كلمات أعجاب أو اعتراف بتصرفه الإخلاقي العظيم كان أشبه بالمثل الذى ينحني للجماهير وهو واثق من أنها سوف تصفق له بحرارة وأعجاب ، وعندئذ شعرت بنفور حاد منه ، رغم أن كل كلمة قالها ، كانت نقيض بالمعنى السامية ، وتؤكد القيم النبيلة فى حياة الإنسان . ووجدتني أقول له فى عصبية لا تخلو من سخرية انى كرجل حرفته الأدب ، توهقنى الصيغ الانشائية ، والكلمات الكبيرة ، مثل الشهامة والبروءة والنبل والانسانية الى آخر هذه الكلمات الضخمة ، وكان يستمع الى فى غير فهم ، فأضفت قائلا انى كنت أسمع منذ قليل اعترافه التفصيلي بإشرافه على عملية قتل والد « تو » فلو كان يعرف حقيقة المعانى الضخمة التى يتحدث عنها ،

لتردد طويلا ، قبل أن يحدثنى على هذا النحو عن اليتيم الذى كان هو نفسه سببا فى تيممه .

وتوقعت أن يثور زهدى ، فقد بدت عليه علامات التشبه لما أقول ، وأوشكت أن اسمع سيل الشتائم البديئة التى سيقذفنى بها ، ولكنه أستمر يستمع الى فى بلادة وقد فقر فاه ، وللحظة لحاطفة خيل الى أنه قلق ، وأنه يشعر بضعف ، وسرت فى جسدى رعدة ، كأنى أرى ظاهرة خارقة من ظواهر الطبيعة ، أن هذا القلق الذى مر كالشهاب فى عينيه ثم اختفى ، كان يعلن عن وجود انسان فى هذا الكيان أو الجسد المدعى والمتداعى الجالس أمامى .

أكون هناك احتمال للقاء حقيقى بينى وبين هذا الرجل ، لقاء انسان بضعفه وقلقه ومخلوفه ، مع انسان آخر بضعفه وقلقه ومخاوفه . هل هناك شىء آخر حقيقى تخلف هذه الواجهة التى اسمها اللواء زهدى ، والتى أناديها أحيانا عندما اداعبه هاتفا .. يا جنرال .. كيف أمسك بهذا الشهاب الذى لمحتة فى عينيه ؟ أم هو الوهم الذى جعلنى أرى ذلك الشهاب . وزادت دهشتى وأنا أرى زهدى يميل برأسه نحوى ، وقد تقدم بجسده الى حافة المقعد الذى يجلس عليه ، مطرفا بأذنيه ، يريد أن يسمع منى المزيد .

وما الذى فعلته فى تلك اللحظة ، لقد ارتبكت ، وتخفت ، وتحولت مشاعرى فجأة من تقيض الى تقيض ، همست مخاوفى ، هذا الرجل يريد أن يستدرجك لأمر ما ، ألزم الحذر ولا تندقع معه فى الكلام ، وأنت على أى حال جئت لتسمع لا لتتكلم ، وإذا بى أقول لزهدى معتذرا له عما بدر منى ؟  
- آسف يا زهدى بك .

فنظر الى نظرة طويلة وأهنة ، وقال وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة وأدعة أنه كان يريد أن يسمع رأى ، كان يتحدث ببطء ، بلهجة فيها تفكير ومعاناة . لهجة تختلف تماما عن اللهجة المسرحية الخطابية التى كان يتعامل بها معى منذ قليل .

أصبح صوته خافتا ممطوطا ، وهو يحدثنى عن أهمية هذه الجلسة بالنسبة له . فهى جلسة أصدقاء من نوع نادر ، قد أتاح له وجودى فرصة الحديث فى موضوعات لا يستطيع أن يتحدث فيها مع كل الناس ، وهو واثق من رأى فى نسبة الأصدقاء فى النادي ، كلها كلام فارغ ، وضياع وقت . أنها فى الحقيقة ضياع عمر .

وكم كان يتمنى مثل هذه الجلسة منذ زمن طويل ، يتحدث ويتفاهم حول الأمور الهامة في الحياة ، فقلت له انى وافقه تماما ، بل انى سعيد بسماع ما يقوله ، واننا وصلنا الان الى ما يشبه مفترق طرق . ويهمنى جدا أن أبادله الرأى فى شىء يهمنى بالدرجة الاولى وهو حقيقة مشاعره نحو « تو » ، وأسرعنا أقول له ، انى لا اهتمه ، ولا ألومه ، ولا أحاكمه ، فليس هذا مقصدى ، كل ما أريده هو أن أعرف .

فتجاهل زهيدى كل كلمة قلتها ، وكأنه لم يستمعنى ، بل انا واثق انه لم يفهمنى ، لانه مضى يتحدث عن الشلة التى تجتمع فى النادى ، شكرى السفير ، ورءوف مدير البنك ، وسعفان رئيس مجلس الإدارة وقيرهم وقيرهم ، كلهم يا استاذى الفاضل طاقات معقدة ، أحالوها الى الاستيداع أو المعاش ، وكان من الممكن أن تفيد البلد بهذه الخبرات العظيمة ، وأذا كانت السلطة قد أخطأت وقرطت فىنا ، فلماذا نخطف نحن فى حق أنفسنا ونضيع وقتنا فى الكلام الفاضى والهلس ..

كنت أستمع اليه وهو يتعدى عنى ويوشك أن يتوه فى ضباب بعيد ، وعجبت لضوته وهو يعود الى الارتفاع ، وأللهمجة الخطابية تستولى عليه من جديد ، وبلغت ذروتها ، وهو يهتف أمام الجماهير التى هى انا . وينظر فى المرأة الوهمية التى يتأملها ممجبا بنفسه ، قائلا : اعترف انى مسئول عن جلسات الهلس .. انا الذى جعلتكم تستسلمون لما انتم فيه من ضياع .. ولكن هل هذه هى حقيقة زهيدى .. أبدا .. وهل انا مرتاح لسلوكنا هذا ، مستحيل .. ونحن لان نستطيع أن نفعل شيئا .. فلكر معى فى كل هذه الرءوس الكبيرة التى تجتمع فى النادى ، لتبادل الشتائم وتلعب البريدج ، ماذا يحدث لو تجمعنا ، ووضعنا أيدينا فى أيدي بعضنا بعضنا ، وتقارب رءوسنا ، وكان لنا رأى فيما يحدث فى البلد ، أقسم لك أن حالنا سوف يتغير وسيكون لنا كيان ونقود ، ويعملون لنا ألف حساب ، لا تستهن بهذه الكفاءات المتقاعدة .. اليس هذا رأيك ؟

كان قد غاب عنى تماما ، وكنت أفكر بسرعة متحمومة فى حقيقة نواياه ، وكنت لم أتبين بعد ، ما أدركه الان ، عن هذا الشد والجذب الذى كان بيننا حول السياسة من ناحية و « تو » من ناحية أخرى .



وقلت له مرتبكا :

— هذا يعنى أن نتحول الى حزب ، وينتهى بنا الامر الى حفلة من حفلاتك اياها فى السجن .. فهل أنت مستعد لهذا يا زهدى بك ..

فهر رأسه مستنكرا وقال :

— ما هذا الذى تقوله .. المسألة لا تحتاج لحزب ولا يحزنون ، أنت لا تفهمنى .. كل ما هو مطلوب يا أخى هو أن نجتمع مألنا من علاقات وصلات هنا وهناك .. وأن نتحرك معا .. نحن فى حاجة الى علاقات عامة .. هل تعرف أن أى مشروع كبير فى أمريكا يخصصون نصف ميزانيته للعلاقات العامة .. مثلا .. أنت تكتب فى الصحف .. وتستطيع طبعا أن تكتب مقالات عن الطاقات المعطلة أمثالنا .. انا شخصا مستعد أن اكتب لك سلسلة مقالات فيها دراسة عظيمة عن مفهوم الامن فى مجتمعنا ، وهكذا تظهر فى الصورة .. ويكون لنا دور .. ولا يضيع عمرنا فى النادى والبريدج .

كان اقتراحه مفاجأة لى ، فلم اتوقع أن يتحول هذا الرجل البدئ السليط اللسان ، الذى يتزعم جلسات النكات الجنسية ، ولا يستريح الا اذا خلت جلسة النادى من النساء ، ليتأوه ، ويصدر ابشع الاصوات ، يتحول هذا الرجل ، الى داعية لنشاط . ماذا اسميه ؟ جميع قوة نفوذ . او خلق نواة لمرکز قوة كما نقول بلغة السياسة .

قلت له :

— الفكرة عظيمة ، ولكنى لن اتوسط لنشر مقال وأخذ لك ، قبل أن تحدثنى عما أريد أن أعرفه .

ومرة اخرى ، خيل الى انى لمحت شهاب القلق يمرق فى عينيه ، وقال بصوت يخلو من حماسه المعتاد عندما يسب ويشتم .

— يخرّب بيتك .. هيه حكاية الدبابة .

قلت فى اصرار بليد :

— عرفت منك أنك قتلت الاب .. وسمعتك تقول انك كنت شهما ذا مروءة فتبنيت الان .. وهذا شئ مشير بالنسبة لى .. اريد أن أعرفك تفاصيله .

فهمت وقد عاود لهجته المسرحية :

— لا .. ياسيدى .. هذه باشكاه ، وهذه باشكاه .

ثم أردف يشرح لى ، وقد أدرك انى لم أفهم .

— موضوع الاب شيء .. وموضوع الابن شيء آخر .  
قلت :

— هناك صفة بينهما .  
هتف فى ثقة :

— قطعاً لا .. هذا عمل أؤديه .. وأنفذ فيه الأوامر مهما كانت  
نتائجه .. وذلك عمل أقوم به بمحض إرادتي .. لقد قلت لك هذا  
الف مرة .. فاعتقنى يا أخى .. حتى تفرغ للكلام المهم .  
قلت له :

— إن ما أتحدث فيه مهم جداً بالنسبة لى ..  
وفتح فمه ، فأسرعت بالكلام رافعاً صوتى ، أكاد أتخذ نفس  
اللهجة الخطابية .

— إذا كنت تريد أن تتفاهم معنى ، فيجب أن يكون تفاهمنا كاملاً  
إن موضوع « تو » هذا لا يعنينى فى شيء .. وأقسم لك أنى لا أعرف  
حتى الآن ما الذى جعلنى أسألك عنه .. أفه شيء خرج من الهواء  
من العدم .. وأول شيء جاد سمعته ، هو مآرويته لى أنت عن والده  
.. ولست أدري لماذا لا تشغلنى هذه القصة الآن — بقدر ما تشغلنى  
صلتك أنت بالولد — بصراحة أريد أن أعرف ، هل أنت تساعد « تو »  
لتكفر عن شعور بالذنب .

صرخ زهدى :

— أى ذنب يا أستاذ .. هذا آخر ما كنت أتصور صدوره عن  
رجل عاقل مثلك .

وانهال على هذه المرة بشتائمه البذيئة ، ولكن وعشة فى صوته  
كانت تفضح ذلك القلق الذى يعانى منه . أنها ليست نفس اللهجة  
غير المبالية الوقحة الواثقة التى يطلق بها شتائمه فى النادى . هذه  
شتائم دفاع ، لا شتائم هجوم .

وواجهته بابتسامة عريضة وقلت له :

— أستم كما تشاء ..

هتف متظاهراً بعدم الفهم :

— ما الذى تريده بالضبط .. ماهو هدفك ؟

قلت بسرعة :

— ولماذا حكيت لى ما حكيت ؟

— لأنى كنت أريد أن أدخل معك فى الموضوع .. سألتنى عن تو

.. فحكيت لك عن أبيه والشيوعية .. والمصائب التى حدثت لى

ولبلد . وبدانا نتفاهم .

قلت بغير تفكير :

- الموضوع يستحق أن اكتب عنه رواية .

قال :

- أعرف هذا ..

قلت :

- ولذلك أريد منك تفاصيل أكثر .. هل تذكر يوم جئت لزيارتك في هذا البيت لأول مرة .. يوم سفر حسن الى كندا .. ألم أحدثك عن الصلة بين رجل الشرطة وكاتب الرواية .. وكيف أن كليهما يهتم بالتفاصيل الدقيقة ماخفي منها وماظهر .. التفاصيل يا جنرال أرجوك .. التفاصيل لا هذا الكلام عن الشهامة والمروءة .

تململ زهدى على مقعده وقال :

- رغم أنك خيبت ظني فيك .. إلا أنني سأحكي لك كل ما تريد ،

سأكون صادقا معك .

وأطرق برهة .. كأنه يتذكر نحيثا ، ورفع رأسه وقد رسم على شفتيه ابتسامة خفيفة مريبة . ومضى يقول أنه سمعني الآن ، وأنا أذكر ابنه حسن ، وهذا التذكر يشعره بالوحشة والحنين الى ابنه ، ويعترف لي بهذه المناسبة أن المعروف الذي صنعه لتو ، كان له مقابل لم يطلبه من أحد ، ولكنه طلب من الله سبحانه وتعالى ، منه هسو وحده ولا أحد غيره ، طلب من الله أن يضع في طريق ابنه الذي في القرية ، رجالا يمدون له يد العون والمساعدة مثلما فعل هو مع تو . وهذا طلب لا يستطيع أحد أن ينكره عليه ، من حقه أن يفكر في ابنه ومن حقه أن يعامل الله بما يرضيه ، وهو يتوقع أن يرد له الله الثواب مضاعفا لابنه .. صدقني أنا مشتاق اليه . وأحيانا تنتابني الهواجس السوداء ، وأفكر في أنني سأموت قبل أن أراه ، واتعذب ، ولا أطيع نفسي ، وأحيانا تراودني فكرة تلح على أن أذهب اليه في كندا وأتوسل اليه أن يعود ، فمن يدري ، قد يكون في حالة سيئة . أو يتصور جوعا ولكنه عنيد لا يريد أن يعترف بالهزيمة ويعود الى أبيه .. ثم هذه الأرض ، لمن يتركها ، ومن يرثها ، أحيانا تخطر له أفكار جنونية ، أن يتزوج وينجب ولدا آخر ويتخلى عن هذا الولد الاحمق الذي هجره .

لقد صارح السفير شكرى منصور بهذا الخاطر عندما زاره في

بيته ، وقد نشأت بينهما علاقة خاصة لما يعانيه كلاهما من ولديهما ،

حسن هاجر ، ويسرى لا يتورع عن ضرب أبيه .. وزهدى يقول  
لشكرى ، ليت حسن بقى وضربنى . وشكرى يقول لزهدى ليت يسرى  
هاجر أو مات ولم يرفع يده على . ولما سمع شكرى بالافكار التى  
تراود صديقه زهدى عن الزواج ، حذرته قائلاً : اياك أن تفعلها  
يا مجنون ، نحن فى سن لا نشعر فيه بالرغبة نحو المرأة ، لاننا  
أصحاء ، ان الذى يحرك رغباتنا هو التهاب البروستاتا ، ولو تزوجت  
يا زهدى فسيقضى عليك بالالتهاب وتموت فى ستة شهور .  
وضحك زهدى قائلاً :

— هل هذا يعجبك فى الرواية ؟

قلت له :

— كل ما تقوله يعجبنى .. ولكن .. لا تمسب اذا عدت وسألتك  
.. ألم تشعر حقاً بأى رغبة فى مساعدة تو للخلاص من الشعور  
بالذنب ..

فهز رأسه ناعياً .. وردد :

— أبدا .. أبدا ..

سألته فيما يشبه التوسل :

— ساعدنى وأفكر ..

ولمحت لفرحتى شهاب القلق فى عينيه ، وسمعت صوته هادئاً  
خافتاً .

يشرح لى أن الامر ليس كما أريد أن اصوره . ولكنه عندما وجد  
« تو » أمامه لم يتمالك أن يقول لنفسه . هاهى الاقدار قد أرسلت  
هذا الولد بالذات لتمتحنى فى أبنى حسن .  
وسكت ناظراً الى فى استسلام يشجعنى على أن أسأله  
يد .

فسألته :

— كيف التقيت به ؟

فتح فمه ليخبرني ثم أغلقه ، وقد ظهر عليه ارتباك واضح ، هاهو  
لاول مرة يطفح القلق والضعف .. يطفحان الى السطح .. وكان  
نسغولاً بمحاولة ترتيب الحكاية وتفاصيلها على النحو الذى يريد أن  
يصوره لى ، وبعد أن استقر الى صورة معينة ، قدمها لى على النحو  
التالى .

قابل منيرة بيجو ذات ليلة ، وكانت واقفة عند باب شقتها ، ويبدو  
انها كانت تترقب مجيئه من النافذة . فلما رآته قادماً أسرع الى

باب شقتها وفتحته ، وقابلته بلهفة غير عادية . . وسألته أن يدخل عندها لتحدثه في أمر يهمها . أنه أمر كثيرا ما يحدث ، وهي تعتمد على مشورته فيما بينها وبين شرطة الاداب من صلات ، لانها تقدم لهم الكثير من المعلومات مقابل التساهل معها في حدود ، وهذا امر معترف به ، ولا مفر منه لتنفيذ اعين الشرطة الى عالم الدعارة والمومسات .

وفوجيء زهدى بوجود شاب من نوع « الهيبى » فى صالة بيت منيرة . مخلوق منفر قذر ، ان زهدى يشعر شخصيا بالقرف من هؤلاء الأولاد الهيبى . بصراحة لا يطيقهم ، ولو تركوه يتصرف على حريته لآبادهم سحقا ، لانهم فى نظره أبشع وأوسخ من الصراصير والبق . اهانة للرجولة ، وكان طبيعيا أن يتأفف زهدى من وجود الولد ، ولم يخطر بباله أن منيرة سوف تتحدث معه فى الموضوع الهام الذى يشغلها أمام هذه الحشرة ، وأسوأ من هذا ، أن الولد الحشرة ظل جالسنا مكانه منكوش الشعر بقميصه المزركش يهرش شعره ، دون أن يكلف نفسه الوقوف احتراما للرجل الذى دخل . وهو لابد يعلم من منيرة ، من هو . وما يكون مقامه .

وفوجيء زهدى بمنيرة بيجو تشير الى هذا الهيبى ، وتسأله أن يساعده فى البحث عن عمل ، ارتفع الدم فى رأس زهدى ، وكساد يضرب منيرة ، لولا أن تماسك ، وصاح هادرا فيها ، انها جنت ، اذ تجرؤ على مثل هذا الطلب ، اذ كيف يخطر ببالها أن يساعدها هذا الحيوان الحقير الشاذ الذى لم يكلف نفسه مجرد عناء الوقوف احتراما له .

وهنا انتفضت الحشرة واقفة ، وتلثم بكلام غير مفهوم زاد زهدى حنقا ونفورا منه . وقالت منيرة أنه يقول أنه وقف عند دخوله ثم جلس فصرخ زهدى ، ومن آذن له بالجلوس طالما أن سيده واقف . ولعن سنسفيل جدوده ، وقال لمنيرة ، انه لا يعرف أصحاب المواقف التى تستعمل أمثال هؤلاء الشواذ المنحرفين ، وانها اذا كانت تستخدم أمثاله لاستعمال زبائنهم ، فسوف يقطع صلاته بها ، وسوف تتغير معاملة الشرطة لها . وسوف تعود الى السجن مرة أخرى أو على الأقل سوف يطردها من هذا البيت .

ويعترف زهدى بأعجابه بمنيرة فى هذا الموقف .

المرأة تحملت كلامى فى هدوء كامل . امرأة واعية قادرة ، لا تهتز بسهولة أمام أى تهديد رغم انها واثقة من قدرة زهدى على تنفيذه ،

كل ما فعلته ، هو أن انحنت وخطمت شيشيها ، وتقدمت في هدوء بجسمها الضخم ، وانهالت عليه ضرباً ، والولد ساكت لا يتحرك ، يكتفى باطراقة من رأسه الضخم ، متلقياً ضربات الشيشب في أذنان واستسلام ، ولاحظ زهدى أن ضربات منيرة ، ليست بالعنف الذي توهم به شتايمها ، كانت تضربه بحنية ، والولد الحقيق يكاد يخفى ابتسامة ، وأخيراً التفتت منيرة إلى زهدى وقالت له أنها ضربته وأدبته بما فيه الكفاية . ولكن ما حيلتها وهذا المغفل يحتاج إلى مساعدة ، ثم اندفعت تنحنى على يد زهدى تقبلها وتتوسل إليه أن يفقر للولد غباءه وحماقته . وأن استجابة زهدى لطلبها هو جميل العمر الذي لن تنساه وسوف يجعل منها جاريتها ، يتصرف فيها كما يشاء .

كان زهدى قد قرر ألا يفعل شيئاً لهذا الحقيق المنفر . ولكنه واجه محاصرة منيرة له . واهتمامها البالغ بهذا الحقيق .

وقال زهدى متخلصاً من الموقف ، أنه سيفكر في الأمر . قالها في برود وقد أسرع إلى الباب يريد الانصراف ، فتشبثت منسيرة بذراعه ملهوفة مستغيثة ، وقالت له ، أنت تضحك على ، ولو كنت ستفعل شيئاً لسألت عن اسمه وتعليقه وظروفه . ولم يجد زهدى مفراً من أن يدعن لها تخلصاً من الموقف . وصاحت منيرة في الولد أن يعطيها الورقة ، فأخرج لها ورقة اختطفها من يده وأعطتها لزهدى ، الذي تظاهر بقراءتها ، ودسها في جيبه وسارع بالانصراف وصعد إلى مسكنه ، وهو يشعر بالضيق والحرق ، يقلب في رأسه شتى الخطط التي يرد بها لمنيرة الصاع صاعين .

حتى جاءت ساعة نومه بعد أن شاهد في التليفزيون برنامج السينما والحرب ، وكان يفكر في جملة أعجبتة قالها ضابط الماني في معتقل للأسرى ، كان يقول لأحد زملائه بعد أن قتلوا مجموعة من الأسرى حاولوا الهرب « هناك بعض الأشخاص تشعرون بالأسف لوتهم ، وهؤلاء الذين قتلناهم أفضل من أولئك الفران المدعورة التي تنتفض من الخوف ولا تجرؤ على مواجهتنا . . عاملوهم بشدة . . قال الذين كانوا يستحقون شرف الحياة قد اختاروا الموت » كان زهدى يتقلب في فراشه بعد أن أطفأ النور استعداداً للنوم ، وليس في رأسه سوى هذه الكلمات الباردة ، وصورة الضابط الألماني الوسيم بوجهه النبيل الصارم والمونوكل على عينه عندما اختفت صورة الضابط وقفزت مكانها صورة ذلك الولد الرقيق الذي رآه عند منيرة ييجو . وتذكر الورقة التي تحوى معلومات عنه ، والتي يحتفظ بها

فى جيب سترته ، ولم يستطع النوم ، كان يريد أن ينهض ويقرأ مافى الورقة من بيانات .

وأضاء الأباجرة ونهض ، وأخرج الورقة ، وما كاد يقرأ الاسم ، حتى تذكر والداتو . . الاسم هو الاسم ، لم يتطلب الأمر لحظة تردد واحدة ، منظر الولد برأسه الكبير ، ووقفته الصامتة ومنيرة تنهال عليه بضربات الشبشب ، لم تسمح له بأن يتردد ، الولد ابن ذلك الرجل . . هذا يقين قاطع حاسم لا يسمح بذرة شك . صدف غريبة جمعتها الاقدار ، ألفيلم والضابط الألماني والمعتقل والأسرى وذكرياته عن السجون وشوكت وذلك الرجل الذى مات . واضراب المعتقلين عن الطعام حتى لا يأكلوا لحمه ولا يشربوا دمه ، وترحيلهم الى الواحات ثم ذلك المشهد العجيب الذى وقفك فيه حدادا على الرجل . شهيد الطبقة العمالية . والسفير . . والكلام عن الصداقة وتغير السياسة ، وخروج المعتقلين . . ووثوبهم الى المناصب وانتشار الافكار الشيوعية علنا فى البلد واحالته على المعاش . . وهجرة ابنه ، ثم تدور الدوائر واذا به يواجه ابن نفس الرجل . فى صورة ذلك المسخ المنفر المشوه الشاذ .

وفحص زهدى المعلومات المدونة فى الورقة ، السن ٢٤ سنة ، حصل على الثانوية علمى ، طالب فى كلية الزراعة بالسنة النهائية ، ما الذى يعطله عن الدراسة وقد شارفت على نهايتها . انه يطلب الوساطة فى امتحان قبول وظيفة فى فندق فلسطين . . يقول انه يجيد ثلاث لغات . . كلام غير معقول : وفلجأة خطر لزهدى السؤال الذى كان يجب أن يفكر فيه اول الامر ، هل يعرف هذا الولد صلة زهدى بأبيه . هل تعرف منيرة بيجو . هذه أسئلة بديهية . ويجب أن يعرف الاجابة عنها فورا ، فما الذى يدريه أن هناك شيئا يدبر له فى صفيحة الزبالة التى تجمع بين منيرة بيجو و « تو » .

## الفصل الثامن

طار النوم من عيني زهدى ، وفتح النافذة واطل على مدينة  
الملاهي القائمة تحت بيته ، كانت غارقة في الظلام ، تبرز هياكل  
مراجيحها كاشباح خرافية ، دنيا العجائب تحت ، هناك ، هناك ،  
هاجعة ، ودنيا العجائب ، فوق ، هنا في رأسه تضج بصخب عنيف  
كان لا يقوى على التفكير ، لان الذكريات كانت تغلبه ، ولكن خواطر  
محددة كانت تهاجمه . لو كان « تو » يعرف صلته بمقتل والده ،  
فلماذا لجا اليه ليساعده ، هل يفكر الولد في الاقدام على عمل  
طائش ؟ وهنا ابتسم زهدى وقال لى انه استبعد هذا الاحتمال .  
كانت ابتسامته تخفى مرة اخرى شهاب القلق ، ووجدتني أقول  
بصوت أقرب الى الهمس :

— ولماذا تستبعد مثل هذا الاحتمال .

أجاب بسرعة وانفعال :

— لقد تعلمت من مهنتى الا استبعد أى احتمال ، كل شيء يمكن  
أن يحدث .

يلوح بيده فى الهواء ، كأنه يطرد خاطر الذى يقلقه ، وانطلق  
يحدثنى عن ذلك الشعور الذى استولى عليه ، والذى بدا لى انه حالة  
نفسية معقدة ، ولكنها انسانية تماما ، فاذا كان زهدى قد رفض  
فكرة أن « تو » يتربص به ، وأنه يريد به شرا ، فذلك لان مشاعر  
أخطر وأفذح قد هاجمته وغلبته على أمره تماما ، فقد أيقن وهو ينظر  
الى أشباح مدينة الملاهي ، ويتجول بعينه فى السماء الملبدة بغيوم  
فضية تخفى ضوء القمر ، ان عين الله ترقبه ، وان هذا الوهج الفضى  
المضى فى سماء الليل ، يقول له ان الله قد أرسل له « تو » ليمتحنه  
فى حسن ، وان ارادة الخالق ، هى التى منعت عنه النوم ، وهى التى  
دفعته الى أن يخرج ورقة « تو » من جيب سترته ، وهى التى أبلغته  
أن هذا الولد ، هو ابن ذاك الرجل ، ثم هى التى دفعته الى أن يفتح  
النافذة ، ويطل منها على السماء . نعم هذه هى الحقيقة ، وهو



وائق منها الآن . أكثر منه فى أبة لحظة أخرى ، هاهو يصوغها ويواجهها ويقولها لى كاملة واضحة لا يشوبها لبس أو غموض . وهو يعترف لى أن هذا المعنى لم يتضح له تماما قبل هذه اللحظة التى يحدثنى فيها .

واردف بقول :

ـ أساعد هذه القدرة .. واتحمل نفورى منها ، حتى يرضى الله عن ابنى .

انها علامات ـ كما يقول زهدى ـ تظهر للانسان فى حياته . وعليه أن يقرأها ، وأن يفهمها ، وأن يستجيب لما تتطلبه منه ، والا حاقبت به نقمة وغضب الله .

ولقد تأثرت قى تلك اللحظة بحديثه ، رغم أنى لا أفهم هذا المنطق العجيب الذى يتحدث به ، تأثرت لانه كان يخاطبنى معبرا عن كل مافى نفسه من أبعاد فى صلته بالكون وخالق الكون . ومعبرا عن كل مافى نفسه من أبعاد فى صلته كآب بابنه الذى تركه وهاجر . كان لا يتحدث من خبراته كضابط شرطة ، ولا يتحدث عن أطماعه فى السلطة والنفوذ ولا يتحدث عن شهواته وفجوره ، لقد تخطى كل هذا ، ليكشف لى آخر ماعنده ، وكل ماعنده ، صلته بالكون والرب ، وصلته بالحياة واستمرارها فى ولده .

قال ببساطة أشبه بالصفاء النادر الذى لم أتوقعه أبدا فى مثل هذا الرجل :

ـ بعد هذا الذى حدثنى به قلبى .. واحساسى بأن الله يمتحننى فى ابنى الوحيد ، لم أعد قادرا على مواجهة أى احتمال آخر .. كان لابد لى من أن أساعده .

قالها فى استسلام من لا حول له ولا قوة ، أمام أمر صادر من السماء . كان يبدو لى ساذجا الى أقصى حد ، ولكنى لم أشعر بقوة كلماته وخطورتها مثلما شعرت فى تلك اللحظة . هاهو الرجل الذى لم يتورع عن ارتكاب جرائم القتل والتعذيب ، الذى يتبساهى « بحرفنته » ، الفاجر الداعر ، البذئ ، السليط اللسان ، يكشف لى أنه مازال يحتفظ فى أعماق كيانه الرهيب ، ببذرة سذاجة ، وأن لديه من الامكانيات مايجعله ينجى السماء فى الليل ، ويتبادل معها الحديث ، ويتلقى الاوامر ، بأن يتواضع ويلوث يده بمساعدة من يكرهه أو ينفر منه ، كأنه يلحق الابرص ، ليحوز رضاء صاحب

## الامر وخالق الكون .

وفي الصباح ، كان زهدى يطرق باب منيرة . ودخل عليها حجرة نومها وأيقظها ، وسألها من أين جاء لها ذلك الولد . قالت له وهي تفرك النوم من عينيها ، أنه ولد غلبان ، صاح فيها يسألها ماصلتها به ، فقالت له كلاما ملتويا غامضا ، خلاصته أنها أحبت به كابنها ، فشتمها وسبها ، وطلب منها أن تقول له أى شيء آخر ، فبر هذا الكلام الفارغ عن الحب ، ولكنها صممت فى عناد أن هذه هى الحقيقة . الولد جاء الى البيت مع أحد الزبائن الذى كان يتحدث معها ، بينما جلس « تو » صامتا ، ولم تنتبه اليه ، ولم تكتثر بأمره ، فقد بدا لها أنه جاء كتابع أو سكرتير للرجل ، وحدث أن نهض « تو » فجأة وقال لها متلعثما ، أنه ذاهب ليشرب ، فسألته بدهشة هل يعرف مكان الفريجيدير والمطبخ فقال ببساطة ، أنه لا يريد أن يزورها وأنه سيعرف طريقه ، وتركته لحاله ، ومضت دقائق قبل أن تنتبه الى غيابيه ، وشعرت بخوف مفاجيء فنهضت تبحث عنه ، ودخلت عليه فى المطبخ ، فماذا وجدت ، كان « تو » قد شمر عن ساعديه ، يغسل الاطباق والصحون فى الحوض . كان منهمكا فى عمله بحماس وكأنه فى بيته . فاجأها المنظر تماما ، واذا بها تقول له يا ابنى . وكان يضحك ، وقال لها يا « تانت » وأنه لاحظ أنه لا توجد شغالة فى البيت ، وأنه فكر فى أن يساعدها ، كانت لا تصدق ما تراه ، وعادت مسرعة الى الزبون تروى له ما شاهدته ، فلم يدهش لما سمعه ، وقال لها ، أنه شاب ملحوس . ولكنه طيب القلب الى درجة الهل . وعندما حانت لحظة انصراف الرجل ومعه تو . أمسكت منيرة بيد تو ، وسألته بكل ما يحتويه جسدها الضخم من فضول ، ما الذى جعله يفعل ما فعل ، فارتبك وتلعثم ، ولم تفهم منه سوى قوله ، أنه وجد شيئا يستطيع أن يفعله فى تلك اللحظة ففعله . فقالت له ساخرة وما الذى تطلبه الان لقاء عمك ؟ فاضطرب واحمر وجهه ولم تستطع منيرة أن تتبين من خلال لعنتمته سوى كلمة أبدا . . أبدا . . وبعد مرور حوالى اسبوعين ، فوجئت به منيرة يطرق بابها . انا كنت بالقرب من هنا يا « تانت » قلت افوت عليكى . . حاولت أن تعترف سببا آخر لمجيئه غير رغبته فى رؤيتها فلم تفلح . ومرة أخرى أكد لها الزبون الذى جاء به لأول مرة ، أن « تو » هكذا ، واضساف محذرا ، أنه قد يفعل معها مثلما يفعل معه ، فهو أحيانا يهبط عليه فى بيته ، ويقضى عنده أباما قد تطول الى اسبوع واكثر ، ولنسكن

« تو » لم يحاول أن يبيت عندها أبداً ، كان يزورها وكأنه قريب ، بينه وبينها صلة دم أو نسب ، ووجدت نفسها تعتمد عليه أحيانا فى بعض أمورها ، فكان يلبي طلباتها بسرعة حقيقية ، اذهب يا « تو » لشراء كذا وكذا من السوق . فوت على الاجزاخانة ، التليفون عطلان كلم النمرة دى وقول لفلان كذا وكيت . . حتى جاء وقت فكرت فيه ان تستخدمه لقاء أجر ، ولكنه كان يذهب فيختفى أسابيع ولا تدرى اين ذهب ، ثم يعود فجأة ، وفى يده زهرة قطفها من حديقة عامة . ولد غريب ، غير طبيعى ، ولكنها أحبته . حتى البنات اللاتى يدرن فى فلك منيرة أحبينه . كان يضحك معهن وكانهن شقيقاته . وأحيانا كن يتخاطفنه ليذهب مع واحدة منهن الى السينما فى يوم تكون خالية فيه من الشغل . لم يحاول أبدا الاقتراب من واحدة منهن ، حتى خشيت منيرة أن يكون الولد فاقدًا لرجولته ، فتدبرت الامر مع البنات ، وانفقت مع واحدة منهن كانت أكثرهن تعلقا به ، وسمحت للبنات أن تكشف رجولة تو ، وهيات لها الظروف فى بيتها ، رغم أن منيرة لا تسمح أبدا بأن يتم أى فعل من هذا القبيل فى بيتها ، أن بيتها هو بمثابة الادارة العامة التى تتم فيها الاتصالات ، وتنفذ فيها الاتفاقات ، أما التنفيذ ففى أماكن أخرى ، هذا شرط أساسى لضمان استمرار صلتها الودية بشرطة الاداب . ولكن من قال أن « تو » زبون . انها تعتبره واحدا من اقاربها . بل هو أصبح بمثابة ابنها . وأعدت منيرة الاحتفال المناسب . ملوخية بالارانب ، وسهرة عائلية مع تو وسعاد حتى منتصف الليل ، ثم الحاح من منيرة أن يقضى «تو» الليل فى بيتها ، ولم يدعن حتى قالت له أنها تحتاج إليه فى أمر هام فى الصباح . وانتظرت منيرة اللحظة المناسبة التى تنسحب فيها ، تاركة تو مع سعاد وحدهما ، ولكن « تو » لم يبد عليه أنه قد فهم شيئا آخر ، غير أن منيرة هى « تانت » وأن سعاد شقيقته . واضطرت منيرة أن تضع النقاط على الحروف . قالت له بصراحة . ان لديها حجرة نوم واحدة غير حجرتها الخاصة ، وان فى تلك الحجرة سريرا سوف ينام عليه ، وقد أعدته لراحته ، ثم قالت له ان سعاد سوف تقضى هى الاخرى ليلتها فى البيت وسوف تنام مع تو فى نفس السرير ، وفى الصباح قدمت سعاد تقريرها الى منيرة ، وكان تقريرها مطمئنا تماما عن رجولة تو . رغم اعتراف سعاد بأنها هى التى قامت بكل المقدمات الضرورية للوصول الى معرفة الحقيقة

وكانت هذه هي أول عملية تقوم بها منيرة مجاناً لوجه المعرفة ، لا من أجل المال . الطلب الوحيد الذي طلبه « تو » من منيرة ، هو ، اذا ماكانت تعرف أحدا مهما يستطيع أن يتوسط له للعمل في فندق فلسطين . عندئذ فقط فكرت منيرة في اللواء زهدى . وكان ماكان . رغم أن زهدى استراب مما كانت ترويه له منيرة ، وخيل اليه أكثر من مرة أنها تشرح به ، الا أن نفس الريبة داهمته بشعور آخر على النقيض من الريبة والشك ، فقد طفى عليه احساس بأن هذا الذى حدث بين منيرة وتو ، كان أيضا من تدبير الاقدار ، هي التي جعلت هذه المرأة الجبارة تلين وتحب تو ، وتعامله كابنها ، هي التي حطمت كل مافى هذه المرأة من جشع ولا مبالاة بأى مخلوق فى الدنيا لا تكسب من ورائه قرشا . انه يعرف منيرة جيدا ، امرأة تتاجر بالاعراض ، تبيع نفسها وتبيع ابنها ، لتكسب من الدعارة ، فما الذى جعلها تتحول على هذا النحو مع « تو » بالذات . نعم ، انها مشيئة عليا ترتب الاسباب ، ليشق « تو » طريقه واصلا الى زهدى . انها ارادة الله ، قدفت بتو نحو زهدى عن طريق منيرة بيجو ، قدفته سؤالا تمتحن به الاب ، وتنتظر منه الاجابة ، فاذا نجح انقذت ابنه ، واذا فشل قضت عليه .

قال زهدى لمنيرة :

— سوف أساعده .

فتهلل وجهها فرحا ، وهجمت عليه تقبله ، فدفعها بكلتا يديه ، شاتما لاعنا موجهها اليها والى تو كل مايعرفه من الفاظ قذرة بذئنة . ولكن منيرة لا تهتم الا بالتصرفات العملية والنتائج ، كانت شتائم زهدى أكاليل ورد تعنى انتصارها فى تحقيق رغبتها فى مساعدة « تو » . ويهتف زهدى فى وجهي فيما يشبه الصراخ ، انها ليست رغبتها .. مستحيل .. انها رغبتة هو ، ورفع اصبعه الى السماء . وكان منظره ساذجا شديداً بالبلاهة . وكان رغم ذلك قويا مؤثرا . وقبل أن ينصرف سألها ذلك السؤال الذى كان يريد أن يبدأ به . هل تعرف شيئا عن عائلة تو . قالت له انها لا تعرف الكثير . وانها سألته عن أمه ، فقال انها تعيش فى طنطا مع عمه الذى تزوجها بعد موت والده . وأنه يعيش وحده فى الاسكندرية . فسألها وهو يتظاهر بجمع معلومات قد تفيده فى البحث عن وظيفة مناسبة اذا ما كان قد حدثها عن أبيه . فقالت له انها لا تعرف عنه شيئا سوى أنه مات وشعر زهدى أنها تكذب ، ولم يقتنع بأن هذا هو كل مايعرفه ، ولكنه

فضل أن يحتفظ بشكوكه لنفسه . وسألها أخيرا وهو يودعها ، اذا ما كان تو يعرف من هو زهدى . فانطلقت منيرة في نفاق لا يفيد ، قائلة ان كل الناس تعرف من هو زهدى بك وتعرف اهميته ونفوذه فاضطر ان يسألها وهو حائق ، عما اذا كان تو هو الذى اقترح وساطته ام هي . فقالت منيرة أنها هي التى فكرت فى ذلك . ثم سألته فى خوف حقيقى اذا ما كان قد عدل عن رايه او أن هناك شيئا مالا يرضيه فقال لها أنه لا شيء هناك . وطلب منها أن يتصل به « تو » فى النادى ليخبره بما يستطيع ان يفعله . .

وهنا سكت زهدى . وبدأ لى أنه مرهق . أسند ظهره الى المقعد وملا صدره من شهيق طويل . يعقبه زفير لاهث ، يكاد لا ينتبه الى وجودى ، ولزمت الصمت ، ولو كان قد طلب منى فى تلك اللحظة أن أتركه وشأنه لفعلت ، فقد رثيت لحاله ، وشعرت نحوه بشفقة حقيقية ، أخرجتنى حتى فكرت فى أن أستاذن منه وانصرف ، لولا أنه بدا كمن يفيق . ويعتدل فى جلسته ويقول لى وكأنه نسي تماما ما كان يتحدث عنه . . انه يعرف تاريخ منيرة ، وجعل يثرثر بكلمات عنها ، قال انها كانت بنت ناس طيبين ، وان جمالها المروع فى صباها هو الذى انتهى بها الى هذا المصير ، زوجها وهى فى سن المراهقة من ضابط صغير طائش كان يتركها وحدها ويلعب القمار ، واذا خسر عاد الى البيت ولازمه ونكد عليها بالشتيمة والضرب واذا كسب فلا ترى وجهه ، وانتهى بها الحال الى التعرف الى سيدات فاسدات من الطبقة الراقية ، تعرفت عن طريقهن بأعيان باشوات أيام كان الاعيان أعيانا والباشوات باشوات حقيقيين لا كباشوات السينما والتلفزيون فى هذه الايام ، وفتن بمنيرة «ع» باشا الذى كان وزيرا للاوقاف يوما ما . وكانت له شهرته المدوية فى عالم الهلس والمغامرات النسائية ، وقد عرفه زهدى وجلس معه فى شبرد القديم الذى احترق . وراه يشرب الويسكى فى فنجان شاي . ويقول ان الويسكى حلال شرعا . لأنه ليس خمرا فهو مقطر والمقطر حلال والمخمر كالنبيذ والزبيب هو الحرام . وكان «ع» باشا هو المنقلد لمنيرة من زوجها . فقد تدخل فى الطلاق ونجح فيه ، واشترى لها أيامها عربية فورد فارهة ، كانت تركبها وقد ارتدت معاطف الفرو الثمين ، وزينت جسدها باللؤلؤ الحر ، وتدلّى من أذنيها قرطان من الماس ، ورأى زهدى أساور الذهب البندقي فى شكل ثعابين تتلوى على ساعد منيرة من رسفها حتى منتصف ذراعها .

كانت آية فى الجمال والروعة والابهة . ذات مرة رآها مع الباشا فى بنوار فى الاوبرا الايطالية وكان قد حصل على تذكرة من صديق له . ولم يشاهد شيئا فى الاوبرا ، ولم يسمع غناء . كانت عيناه لا تفادران وجه منيرة ، حتى لفت اليه الانظار ، ولكنه لم يهتم . ثم انقلب الحال . وضاع الباشا مع من ضاعوا من رجالات البلد . وقضى بعض الوقت ضيفا فى السجن ، ولكن زهدى - وكان مازال ضابطا صغيرا فى مصلحة السجون - استطاع أن يجعل من حياة « ع » باشا فى السجن احسن من حياة نزيل الهيلتون أو الشيراتون . كان لديه كل شيء ، ولا أحد يناديه الا بلقبه معالي الوزير ، وسعادة الباشا وكان الطعام يصل اليه كل يوم فى شبه وليمة ، صوانى الحمص المالحو بالفريك ، والديوك الرومى والارز بالخلطة المضبوطة بالزبيب والصنوبر والبندق ، والتفاح الأمريكانى ، والكنافة والبسبوسة ، وكانت منيرة هذه تباع من مصاغها لترسل للباشا الهدايا ، أحدث الولاعات وعلب السيجار روميو وجولييت وبارتجاس وكوفيات كشمير وكل ما يحبه قلبه . وكان ضباط المصلحة الكبار يزورونه من وقت لآخر لتلبية كل طلباته ، أحيانا يذهب الى المستشفى ، وتفتح له الزيارات ، وهكذا عاش فى نعيم وقضى فترة استجمام ثم خرج وسافر الى أوروبا . وبعد سفره تدهورت حال منيرة التى أرادت أن تصبحه فرفض وتخلي عنها . وبعد سنوات كانت الإسكندرية تتحدث عن منيرة فورد التى تبحث عن باشا آخر فلا تجد ، حتى تحطم الوهم ، وواجهت الحقيقة المرة وباعت الفورى التى كانت تستخدمها فى صيد رزقها ، وأصبحت كجندى فقد سلاحه فسرعان ماتت الضربة القاضية بالقبض عليها ودخلت السجن ، وخرجت منه مضعضة ولم تعد كما كانت ، ولكنها أصبحت امرأة مجرمة سافلة عريضة فى السفالة . ومع ذلك فهى على صلات حسنة بالشرطة ، تقدم لهم ما يطلبونه من معلومات ، ولا غرابة فى هذا ، فالشرطة لا تستطيع أن تقبض على كل مومس فى البلد ، والا ضاقت السجون بهن ، واضطرت الدولة الى بناء عشرات السجون الجديدة . ان قوة شرطة الاداب لا تجرى وراء كل مومس ، انه يكفيها أن تسيطر على الموقف ، فالدعارة ستظل موجودة ، ومن المستحيل منعها .

ورفع زهدى يده كأنه يتدارك شيئا وقال :

— لا مؤاخدة . . فى الحقيقة أنا كنت أريد أن اتذكر كيف التقيت

بالولد تو فى النادي فسرحت وحدثتك عن منيرة بيجو ، على فكرة  
أنا الذى غيرت الاسم . . قلت لها ان الاسم المناسب هذه الايام هو  
البيجو . . لان الذين يذكرون الفوردي هم العجائز امثالنا .

ابتسمت له مشجعاً ، رغم أن الكثير مما كنت اشعر به نحوه من  
شفقة قد تبدد مع هذه الشطحة التى اندفع فيها ، كنت لا املك منع  
نفسى من المقارنة بين الكيفية التى استقبل بها والد « تو » فى السجن  
والحفلة التى اقيمت له ، وذبح فيها الرجل ، وبين تلك الولايم التى  
تذبح فيها الديوك الرومية من أجل « ع » باشا ، والتكريم الذى  
يقابل به هو وامثاله فى المستشفيات للعلاج والتمريض والاستحمام  
باسم السجن . كنت أواجه هذا الانحطاط العقلى والاخلاقي السافر  
الذى يجعل زهدى يتكلم باعجاب وامتنان عن جمال منيرة عشيقته  
الباشا ، لانها ترفل فى الحرير والفراء وتزدان بالجواهر والماسات  
وتركب عربة فوردي فارهة ، ثم يتحدث عنها كامرأة سافلة فى مستنقع  
او صفيحة زبالة ، لان الجاه والمال قد تخليا عنها . ان هذا الرجل  
لا يدرك مدى مافى عقليته ونفسيته من تشوهات ، وهو لا يدرك ان  
مجرد وجوده وتسلمه لآى نوع من السلطة ، بل ان مجرد احتكاكه  
بالآخرين كفيل باحداث عاهات فى نفوسهم . ولكن مهلاً . لا يجب  
ان اندفع وراء انفعالاتى . ويجب ان ألزم الحذر ، حتى يكمل تصورى  
هذا اذا استطعت حقاً ان اصل الى صورة متكاملة لهذا الذى  
اكتب عنه .

وسمعت زهدى يروى لى كيف دخل عليه « تو » النادى ،  
وكان قد شذب شعره بعض الشيء ، ولم يشك فى ان منيرة قد  
تدخلت فى ذلك . كان زهدى يتفرج على بعض لاعبي البريدج انتظارا  
لدوره ، وترك تو واقفاً . وقال له فى حنان لم يكلفه الكثير ليصطنعه  
لانه كان يفكر فى ابنه « اسمع يا شاطر سوف أساعدك ، وان شاء الله  
سيكون ذلك قريباً . ولكن لا تقل كثيراً على موضوع فندق فلسطين »  
فقال له تو على الفور ، انه سعيد بأى عمل ، وبرر ذلك بحاجته الى  
المال لانه يعيش مستقلاً عن أهله . وهنا سأل زهدى مباشرة عن أبيه  
فقال تو انه مات . سأل زهدى ، من هو ، ما اسمه وماذا كانت  
وظيفته . قال تو انه كان مدرسا . ولم يذكر أى شئ عن مقتله . وقال  
زهدي مواجهاً تو الذى كان يتلثم فى اجاباته :  
« أنا يا أبهى ضابط وأعرق من هو أبوك .



فأجاب تو بسرعة مرتبكا :

— سعادتك تقدر ظروفى .

ويقول زهدى معلقا على هذه الإجابة انها كانت تبدو صادقة .  
موحية بأن تو لا يعرف شيئا عن صلة الرجل الذى يخاطبه بأبيه . ومع ذلك فهناك احتمال ضئيل بأنه بارع فى التمثيل . ولكن على أية حال كانت لا تبدو على تو شراسة ، أو ما يشير الى أنه يعتزم أمرا طائشا ، وتشجع زهدى فانسحب من مائدة البريدج ، وجذب تو من يده الى ركن فى النادى واجلسه ، وجعل يسأله عن صلته بمنيرة ، وما اذا كانت تعرف شيئا عن أبيه . فأجاب تو بأنه قال لها فعلا أن والده مات فى السجن . فقال له زهدى فى وقاحة سافرة . انه يدرك الآن سر اعجابها به ، فهي أيضا كانت نزيلة السجنون مثل أبيه ، ولم يسب على تو اكتراث بهذا الحديث ، ومرة أخرى شعر زهدى بالاطمئنان ، الولد يتقبل منه كل شيء . واذا كان لا يفعل ذلك عن عمد ، فلا بد أن الاقدار هى التى جعلته طيعا لتسهيل مهمة زهدى فى مساعدته . . وقال زهدى لتو ، أن عليه أن يمر عليه بعد بضعة أيام حتى يكون قد نظر فى أمره . ويعجب زهدى مما حدث له بعد ذلك ، فقد وجد نفسه غير قادر على التحدث مع أحد فى مساعدة تو . رغم أن العشرات من الموجودين فى النادى يستطيعون بكلمة واحدة منهم أن يتوسطوا له فى وظيفة هنا أو هناك . وكان تو يتردد على الناي ، فيطلب منه زهدى الانتظار يومين آخرين ، وتعود « تو » على دخول النادى ، واستطاع بسرعة غريبة أن يتعرف على كثيرين من اولاد الاعضاء فى مثل سنه ، وجلس معهم يلعب البريدج . وفوجيء زهدى بمن يسأله ذات مرة ، عن « تو » وصلته به . واذا به يجيب فى عصبية :

— مالكنش دعوة يا أخى .

وبدا يسمع الهمسات التى تدور هنا وهناك ، وهو قادر على تبين ما يدور فى الخفاء ، وعرف أنهم قالوا أن زهدى قد استعان بهذا الولد فى أعمال خاصة بالمباحث او المخابرات . . وسكت ، وقال لنفسه ، ليتوهموا أى شيء . . ملعون ابوهم . . بل سره انهم خائفون .

والتفت زهدى الى وسألنى :

— هل خفت انت أيضا ؟

قلت له :

— طبعا . .



فضحك ، وقال :  
- طبعا ستحكي لهم كل مارويته لك الان .  
قلت متحيرا وقد فاجاني بالسؤال :  
- لا ادرى .  
قال :  
- اتريد ان تحتفظ به لتكتبه فى روايه .  
قلت مرحبا بهذا المبرر الذى ساقه لى :  
- فكرة .  
فقال :  
- فى الحقيقة .. انا لا يهمنى ان تقول لهم حقيقة الولد .. لولا  
خوفى من ان يسيئوا اليه . على الاقل من باب الرحمة او الانسانية ..  
لو عرفوا ان والده كان شيوعيا .. فلن يرحموه .  
قلت فى دهشة :  
- حتى لو عرفوا كيف مات .  
قال متفاخرا :  
- لو عرفوا .. سوف يمنحوننى نيشانا .. هل تشك فى هذا ؟  
قلت :  
- ابدا .  
فحدجنى بنظرة طويلة .. قبل ان يقول ، انه وجد نفسه فى  
نهاية الامر يدخل معركة مع اعضاء النادي عندما قرروا طرد تو ، لانه  
يتردد على صالة اللعب ، ويختلط بالاولاد .. مع انه ليس عضوا ..  
فلما شخط فيهم زهدى ، سارعوا بتعيينه معاونا لصالة البريدج .  
- وهكذا استرحت .  
فسألته :  
- كيف استرحت .  
قال كالمخاطب نفسه :  
- فى الحقيقة .. كنت اريد ان يبقى الولد بالقرب منى .  
فسألته مستفسرا :  
- اشعرت بعاطفة ابوة ؟  
قال وهو يصدر شخيرا بديئا :  
- ابوة .. ربما ياسيدى .. انها حالة ركبتنى .  
فقلت له :  
- ولكنك انزعجت عندما علمت بحسبكاياته مع رجال الشرطة

ومشاجراته التي لا تنتهى .

فسألنى باهتمام :

— مارأيك أنت ؟

قلت :

— لا أدري .. ربما كان ما حدث لوالده . هو السبب ..

قال زهدى مفكرا :

— أى هو يعرف .. ولكنه لا يعرف أنى كنت الرجل الذى أشرف

على العملية .

قلت مترددا :

— من يدري .

قال لى زهدى فجأة :

— لقد فكرت فى مصارحته .. ولكنى لم أستطع .

قلت مؤمنا على كلامه :

— لا أظن أنك تستطيع .

فقال وهو يزفر الهواء بقوة :

— اليس هذا امتحانا غريبا .

ثم عاد وقال مؤكدا .. انه واثق ان تو لا يعرف عنه شيئا لقد ذهب الى منيرة وواجهها بأنها أخفت عنه ان تو قال لها ان أباه كان نزيل سجون ، فاصفر وجهها ، وحاولت ان تعتذر له بأنها خافت ان تسب هذه المعلومة الى الولد ، وفرح زهدى بما سمعه ، فمعنى هذا انها لا تعلم صلة زهدى بوالد تو ، ولو كان تو يعلم لقال هذه المعلومات لمنيرة .. الا اذا كان ذلك الاحتمال الضئيل بأنه يدبر أمرا مازال قائما وأنه يجيد أداء دوره ببراعة حتى على منيرة نفسها .. وقد اختلطت مشاعر زهدى بين الفرح والشك ، فلم يتمالك نفسه فى ذلك اليوم وانهال ضربا على هذه المرأة الضخمة ، كما لم يضرب فى حياته انسانا ، ولكنها تحملت ولم تفتح فمها بكلمة واحدة .. كانت تقول له وهى تتلقى الضربات .. انه صنع لها جميل العمر كله .. بتعيين تو فى وظيفة فى النادي .

وفجأة ، عاد زهدى يحدجنى بتلك النظرة الطويلة التى لم أفهم سرها ثم قال ان ضابطا كبيرا مثله ما كان ليهتم بمصير ابن مجرم خارج على القانون ، لو ان ذلك المجرم فكر فى مستقبل اولاده ولم يعرضهم

للضياع بمقامراته الشيوعية .. وقال زهدى أنه يحمل كراهية خاصة لهؤلاء الشيوعيين ، لان وجوههم كالحة وأغلبهم يستعمل النظارات ، ولأنه عندما يتعامل مع المجرمين الآخرين ، يستطيع أن يتبادل معهم الكلام ، أحيانا يقولون له نكتة أو يقول هو لهم نكتة . هذا ممكن مع قاتل أو تاجر مخدرات أو لص أو نشال .. أنهم على أية حال بشر .. أما هؤلاء الشيوعيون فالعياذ بالله .. لهم طريقة سمجة في الحديث ، وأفكارهم غامضة ملتوية ، وينظرون اليك نظرات ثعبانية لئيمة وكل همهم هو افساد عقول الشبان ، وباختصار .. هكذا قال زهدى مؤكدا في نهاية شرحه لكراهيته الخاصة للشيوعيين ، ان اى ولد قصير نحيف .. منكوش الشعر يضع نظارات سمكة على عينيه ويتكلم بعصبية وحدة .. هو شيوعى .. ودليل زهدى على صحة كلامه هو مقالات كتبها الاستاذ العقاد عن هذه النماذج الشيوعية . وعاد يحدثنى بنظراته الطويلة الفريية ، وكأنه ينتظر منى أن أقول شيئا .

فقلت :

— أنا لم أقرأ هذه المقالات .

فلماذا به يسألنى :

— أنت معى .. أم لا .

سألته :

— ماذا تقصد .

قال فى ضيق ونفاد صبر :

— هذه اجابة من يتهرب من الاجابة ، لو كنت ضدهم .. كنت

اجبت بالفم المليان .. أن الشيوعيين ولاد كلب .. اما ان تسألنى ..

ماذا أقصد .. فهى تعنى انك شيوعى .

قلت ضاحكا :

— لن تحاكمنى يا زهدى بك .

قال باسماء وقد خفض صوته :

— اسمع .. أنا أريد أن أفهم منك حقيقة الامر .

ونسى تماما كل كلامه السابق وأحكامه القاطعة عن الشيوعيين

.. واذا به يقول لى وهو يغمر بعينيه ..

— اذا كنت شيوعيا .. فافهمنى .. ماهى حكايتها . أريد ان

أناقلم مع هذا الكلام عن الاشتراكية والتقدمية يا أخى .

## الفصل التاسع

كان من المستحيل أن يدور بيني وبين زهدى بحوان له معنى حول الشيوعية أو الاشتراكية ، أن الرجل لا يريد أن يفهم أو يقتنع بشيء أن مطلبه بسيط وواضح . مطلب الرجل الانتهازي ، الذي يرى ، كما يقول ، أن بعض من في السلطة يتحدثون عن الاشتراكية ، وبعضهم أفكاره ماركسية بل كان معتقلا تحت قبضته في السجون ، فلماذا أصبح لهؤلاء سلطة ونفوذ ، بينما ضاع منه كل شيء ، وأصبح لواء على المعاش .

كان يريد أن يفهم سر اللعبة . وكانت لا تعنيه الأفكار والمبادئ فقد حاولت أن أشرح له ، فقاطعتني في ضيق ورفض حاسم . لاى كلام نظرى ، أنه يريد أن يعرف العلاقات الشخصية ، الصلات الخاصة التى أدت بهذا أو ذاك إلى مناصب الوزارة أو مراكز السلطة . وكان يؤمن بأن تعدد الآراء والاتجاهات بين المسؤولين ، له هدف واحد ، هو أن يكون كل واحد منهم رقبيا على الآخر ، يحدا من توغل نفوذه أو تضخم سلطته . فلان له اتجاه اخوانى فلا بأس من أن تضع فى طريقه فلانا الشيوعى . وهذا الوزير عقليته أمريكية فلا بد أن يكون وكيل وزارته أو الوزير الذى يتولى وزارة أخرى متصلة بأعمال وزارته له صداقات مع الاتحاد السوفييتى . كان زهدى يتصور تشكيل المناصب والمراكز وكأنه طبخة « تورلي » تحتوى على البطاطس والفاصوليا والكوسة والباذنجان وكل ما يخطر أو لا يخطر بالبال ، ليأكل الجميع وينبسط الجميع ، وقال لى مازحا ، أنا قمت ياسيدي بدور الكوسة وانتهى أمرى الى ما انتهيت اليه ، فلا بأس من أن أقوم الان بدور الباذنجان أو الفاصوليا ، وعشا حاولت أن أفهمه أن لعبة السياسة أخطر من هذا ، وأن القضية ليست فى أن يأكل وينبسط ويتمتع بالنفوذ مئات أو بضعة آلاف يدورون فى تلك المناصب ، بل هى قضية مصالح ملايين غفيرة تسعى للحصول على حقها فى الحياة الكريمة ، لم يفهم أبدا أن الاتجاهات المختلفة والآراء المتعددة المتعارضة تعكس حلولاً مختلفة ، وقناعات متعارضة حول مصير هؤلاء الملايين .

وأوقف زهدى الحوار بيننا ، قائلا لى بصوت جاد ، ان كلامى هذا على وجه التحديد ، هو الذى يؤدى بصاحبه الى السجن ، وانه يحذرني من ترديده ، وهو ينصحني بحكم خبرته الطويلة ، فالذين يقعون فى الكمين وتبتلعهم غياهب السجن ، هم أولئك الذين يتحدثون بهذا الكلام النظرى ، وهم حمقى ، ولا ينصاع الى كلماتهم إلا الشباب الآخرون ، فيحدثون هياجا وفوضى ، ومن هنا يتحتم الإيقاع بهم وضربهم ، كان زهدى يحدثنى بحرارة الصديق ، الخائف على مصرى ، والذى يدعونى الى ان أسلك معه الطريق الصحيح ، طريق توطيد ما بيننا من علاقات شخصية ، وأن نساعد بعضنا بعضا مستغلين مالنا من علاقات لندخل فى طبخة التورلى ، أو يكون لنا فيها نصيب ، وهكذا تركته فى تلك الليلة وقد اضاف الى شعورى بالخوف من احوال التعذيب والبطش شعورا افدح بالعجز . والذى حدث بعد تلك الليلة انى قضيت فترة طويلة لا أستطيع التردد فيها على النادى ، ولا الاتصال بزهدى ، ولم يكن ذلك بسبب قرار اتخذه او سلوك معين أتبعته ، بل كان ذلك أشبه باستسلام لشاعر غامضة تدفعنى الى تأجيل التردد على النادى مختلفا اعدارا تافهة ، وقضيت تلك الفترة اتردد على قهوة الشطرنج بميدان المنشية ، لعب فيها الشطرنج من الصباح حتى المساء ، مكتفيا بسندوتشات الفول او الفلاف لا افكر فى شيء غير المربعات البيضاء والسوداء ، تتحرك عليها قطع الشطرنج ، وكنت اذا ارهقنى اللعب لا اغادر المقهى ، فاجلس أراقب اللاعبين الآخرين ، لا عمل لى فى الحياة غير تتبع الملوك والوزراء والفرسان والبيادق يتحركون فوق المربعات حتى يصبح احد الخصوم كش ملك مات .

فيثور صخب وضجيج ثم تنتصب القطع من جديد فوق المربعات ويبدأ صراع جديد . ولا أدري كم كان يستغرقنى مثل هذا الادمان ، لولا أصابنى بانفلونزا حادة لزممت معها الفراش ، وهانذا أبدا نشاطى بعد ايام المرض بكتابة هذه الاوراق . فما الذى وصلت اليه ؟ . ويجب أن اعترف انى أثرت كثيرا من الاسئلة الشجاعة ولكنى لم اكتب حتى الان اجابة شجاعة واحدة ، سألت نفسى هل انا عاجز عن مواجهة اعمال البطش والتعذيب والقتل ، لو كان الامر موتا فحسب لهان بعض الشيء ، ولكنهم يقيمون الحفلات التى يهدرون فيها رجولة الانسان ويتغنون فى تحظيمه وهو مازال حيا . هل هذا هو الذى يخيفنى الى درجة الشلل ؟

سألت نفسي عن قيمة الكاتب الذي يكتب للناس وهو خائف مما قد يواجهه ، هل اقبل نصيحة زهدى ، الذي فهمته تماما بينما عجز هو عن فهمي ، لاداعى للاستسلام للانفعالات ، ولاداعى للتورط في خيالات رومانتيكية مع منظر البحر وصيادى سمك المياس الذين تبدو مراكبهم في الافق ..

لقد عجزت عن شرح قضية السياسة لزهدى ، فهل انا افهمها حقا ، ولكنى طوال حياتى وانا احاول أن افهم .. والشيوخيسة والاشتراكية بينى وبين زهدى ، هو الحوار الوحيد الذى عرفته ، انى اختزن فى ذاكرتى العشرات من المواقف التى دار فيها الحوار بينى وبين الآخرين ومن كل موقف خرجت بفكرة ، ورسب شئ فى أعماقى ، كنت اسير جنباً الى جنب مع ذلك الكاتب الشيوعى « ب » فى غابة صنوبر بالجبال وكان الثلج يقطى الارض ، وقال لى الرجل : — أنا شيوعى ، ولكن عشرة فى المائة فقط من الشيوعيين هم الذين يستحقون الاحترام ، الباقون مازالوا فى حاجة الى تهذيب وتثقيف يخلصهم من الجهل ..

وسألته فى دهشة :

— اهذا رأيك ؟

قال وهو يحذرني من أن اترحل على الثلج :  
— عندما تقول اننى اعيش لكل الناس ، وعلى استعداد لان اهب حياتى من اجلهم ، وتطلب ان يأخذ كل انسان بمقدار عمله ثم بمقدار حاجته .. فلا بد أن تكون قد وصلت الى درجة عالية من التربية والثقافة ، الناس يولدون كالاطفال .. غرائزهم نهمة جشعة .. تمتد ايديهم الى كل شئ تقع عليه عيونهم يريدون اختطافه وتملكه ، ان الاطفال أشد المخلوقات أنانية وفردية ، ولذلك كان لابد من تربيتهم وتثقيفهم .. وهذه التربية لا يصل اليها حالياً إلا القليلون .

كان يتحدث بانفعال وحماس .. فنسى فى غمار حديثه ان يحذرني فاذا بى اترحل .. واجد قدمي تنولقان وأطير فى الهواء لاسقط على ظهري فوق الجليد .

وصاح الرجل فرعا وهو يمد يده الى .

— هل اصبت ؟

قلت وانا انهض واحرك ساقى :

— حمد الله .. لم اصب ..

قال باسم :

— ان الله فى عقلك .. وليس هناك يتسلى بمراقبتك فى السماء .. ان مستشفيات تشيكوسلوفاكيا جميلة ، ولكنى لا أريدك أن تقضى أيامك هنا فى المستشفى ..

واذكر ذلك الشاعر فى وسط آسيا ، ونحن نجلس فى مزرعة جماعية بجوار سمرقند ، وقد دعانى الى الشاي ، فاذا به يتكلم بلغة الشعر . والفودكا والبراندى ، هما عنده الشاي ، وقال لى :

— عندما قامت الثورة .. ظن الناس أن كل شيء أصبح ملكا لهم ، فانقضوا على كل شيء ينهبونه .. حتى أخشاب ومقاعد عسريات القطارات فكوها وحملوها الى بيوتهم .. سرقوا المخازن .. لم يسلم شيء وقع تحت ايديهم .. كان الفارق هائلا بين تعاليم ثورة غرائز ناس ..

ثم صمنت برهة وقال :

— اضطررنا أن نبحث عن حراس مسلمين متدينين لحراسة المخازن .. ان المبادئ الجديدة لم تتأكد بعد فى النفوس ، واذا كانت غير واضحة تماما فى العقل فلا شيء يقف حائلا بين الانسان والاندفاع وراء غرائزه وشهواته الخاصة ، نعم كان الحراس المسلمون يساهمون فى حراسة ثروات مجتمع اشتراكى .. لان تعاليم الدين تمنعهم من ارتكاب السرقة .

وهناك فى مقهى امام محطة مترو مونبارناس فى باريس ، جلس الصحفي الاشتراكى الفرنسى ، بجسمه الضخم يلوك بين شفتيه سيجارة جلواز ، متحدثا بعصبية :

— يقولون ان التأميم استبداد . وان الاشتراكية جسيمة .. وينخيفوننا بمذابح ستالين التى سفكت دماء عشرات الألوف ، ولكن المبدأ شيء والمذابح شيء آخر .

ونزع الرجل الجلوازا من فمه ، وسحقها فى منفضة أمامه ومضى يقول :

— هنا فى باريس شاهدنا مذابح الثورة الفرنسية ، كانت الجيلوتين هى « الفيديت » النجمة التى تسهر باريس حولها ، تتسلى برؤية السكين تفصل الرقاب ، والرقاب تسقط فى السلال .. كان بينها رقاب بريئة ولاشك ، ذبحت باسم الديمقراطية ، والحرية والليبرالية .. أرهاب روبسبير . صرخة مدام رولاندا « ايتها الحرية كم من الجرائم ارتكبت باسمك » يومها كان هناك من يقول فى انجلترا والمانيا والنمسا ، حيث يعيش النبلاء : هذا هو ما جلبته

الحرية ، هذه هى النتيجة الحتمية للديمقراطية ، لقد تسلم الاوغاد مقاليد الحكم ، اصبح الرعاع وحثالة البشر هم السادة . نفس الكلمات التى نسمعها اليوم عن الاشتراكية او الشيوعية ، انى ياسيدى لست شيوعيا ، لا احمل بطاقة الحزب ، ولكنى ارفض أن يقرر احد بعقلى ، انى ارفض المذابح والقسوة والبطش والاعتقالات واهدار آدمية البشر ، ولكن ليس بسبب هذا الرفض ، اختار الفاء عقلى ، فأقول لو كنت معاصرا لايام روبسبير ، أنى مع عودة النبلاء ورجوع حكم آل بوربون .. او أقول اليوم بعودة المليونيرات والمحتكرين وقياسرة الاسواق والبورصة .

ثم ذلك الامريكى عالم الكيمياء ، فى المقعد بجوارى فى الطائرة التى نقلنا من سانت لويس الى شيكاغو .

- سيدى .. اننا جميعا كعلماء نفكر اليوم بالمنهج المادى الجدلى .. لانه حقيقة علمية لا جدال فيها . ولكن الخلاف بينى وبين الماركسيين مازال قائما .

واسأله فى فضول :

- كيف ؟

فجيب :

- نحن نطبق المنهج .. ونرفض النتائج الاجتماعية .. المنهج أداة للمعرفة . ولكنه ليس هدفا فى حد ذاته ، النتائج مازالت غير محكومة بمنطق تستطيع ان تسيطر عليه .

واستبعد ذلك الحوار الهادىء فى حديقة شتوية فى موسسكو ، والرجل المفكر البدين يبدو وكأنه على وشك النوم .. ومع ذلك فأفكاره حادة عنيفة .. لا اكاد اصدق انها تصدر عن هذا الجسد المترهل الكسول . كان الرجل يقول وكأنه يتحدث وهو يغالب النعاس :

- لقد عرفت معتقلات ستالين ، كنت احدا نزلاتها .. لانى رفضت السياسة الجامدة .. انها ليست علمية .. مثالا نستطيع أن نقول علميا أن مجتمعا مثل مجتمعكم المصرى قادر على أن يكون شيوعيا . الان .. ان القرارات والأوامر لا تحقق هذا . انها طيش وهراء ان تحقيق الاشتراكية أولا يحتاج الى توافر ظروف معينة .. منها ان تكون الطبقة العاملة قادرة على ان تحكم .. وان تدير عمليات الانتاج . هذا الطرف لم يتعمق تاريخيا بعد عندكم . ان البسلاد النامية فى حاجة الى مرحلة أولى هى مرحلة التصنيع .. والمصانع



تهيب الظروف لخلق الكوادر العمالية الناضجة .. ثم ارتفع صوته  
كمن احس بأنه يوشك ان ينام فعلا :

— الصناعة باي اموال .. حتى لو كانت اموال المرثسين الذين  
يسرقون الشعب .. كل مصنع يقام بتلك الاموال سوف يعود في يوم  
أقرب مما تتصور الى اصحابه الحقيقيين العمال والفلاحين .  
وذلك الاستاذ الجامعي بجامعة القاهرة الذي يحرص على اداء  
فرض الصلاة في مواعده وهو يقول بحرارة اليقين :

— مالها الشيوعية .. انها كافكار شيء عظيم .. النقطة الوحيدة  
التي اختلف فيها مع ماركس .. هي موقفه من الدين .  
ثم يقول بلهجته الواثقة :

— لو كان ماركس عرف الاسلام . لما ناصب الدين هذا العداء ..  
انه انشغل بسلطة الكنيسة واقطاعها .. فتوهم انها الدين . وعدا ذلك  
فما الذي تعترض عليه عندما تنادي بحصول الانسان على ما يحتاجه  
او بمقدار عمله .. امر عظيم وعادل .. انا شخصا لست عاملا ولست  
فلاحا ولم اتصور يوما ما من الجوع .. والامر بالنسبة لى هو قضية  
ضمير . وانا افهم ان كرامتى لا تتحقق الا بكرامة الاخرين . ان سلامة  
الانسان النفسية والجسدية وقدرته على تحصيل العلم الصحيح  
والتمتع الحقيقي بالحياة لن يتم وهو يعيش وسط الجهل والشعوذة  
والسلب والنهب وسوق الفرائز المنصوبه ، لاتوجد بروج مشيدة  
يستطيع ان يتخفى داخلها الانسان مما حوله مهما كان قدره ومهما  
كانت منزلته ، ان حريق الجهل يلاحقه ان الجاهل مظلوم وهو في نفس  
الوقت يحرق ما حوله ، والمريض مظلوم ، ولكنه شرير . انه جحيم  
يدمر ويهلك كل ما تمسه يده . ان الفقر يدعو الناس لارتكاب  
أبشع الجرائم . والذين يعيشون بجوار هؤلاء يتمتعون بالمال والصحة  
والعلم محاصرون ، يعيشون بما يتوهمون تملكه في زريبة خنازير ، ان  
طعامهم الشهى وملابسهم الفاخرة وسياراتهم الانيقة وبيوتهم الوثيرة  
لا تحميهم ، انهم يدفعون الثمن ، بقتل احساساتهم بالتمسك بالافكار  
القدرة والمشاعر الحيوانية والعواطف الشاذة المتدله .  
— ولكنهم لا يدركون ان احساسهم ميت ، ويتمتعون بمشاعرهم

وثرانهم ١٠

فصاح غاضبا :

— ليكن . لانه لو كان اعمى البصيرة يدرك مقدار تعاسته الهائلة  
ووضاعة حياته ، لكان فعل شيئا كذلك الذي يقدم عليه الزاهد المتصوف .

او ذلك الذى قلعه تولستوى عندما واجه الفقر والجهل من حوله . فمضى يتخلص من املاكه فزعا يريد ان يستنقذ نفسه . . ان الافراد الاغنياء الذين يعيشون وسط غالبية من الفقراء قد يظنون انهم اقوى الاقوياء واعظم العظماء . ولكن جهلهم مركب وانحطاطهم مركب . لانهم لا يدركون حقيقة امرهم . . انهم عاجزون تماما عن الفرحة الحقيقية . لا يشعرون بطمأنينة ابدا . لا يرون جمالا صادقا ابدا . ان حثالة البشر من الفقراء ، ليسوا احط منهم الا عندما يصبحون اغنياء على شاكلتهم . . ان المرضى عاجزين عن مقاومة افتك الامراض خبيثا ، تسوء حالهم اكثر لو انهم تمتعوا بعضلات مفتولة قوية على حساب عقولهم الفارغة . . انت تقول عن المريض انه مصاب وقد يشفى . اما صاحب العضلات المفتولة والعقل الفارغ فلا وصف له الا انه غبي حمار . الفقراء المظلومون ما زال عندهم امل ان يحققوا العدل ، وان يستنقذوا انفسهم ، يكفى ان يرتفع رأس واحد منهم فوق مستوى الهوة التى سقط فيها ، ليفكر فى العدل ، ويحارب من اجله . اما الاغنياء الظالمون ، فما من امل لديهم ، لقد ضاعت نفوسهم واحترقت .

هل استرسل مع كل هذه المواقف ؟ . ما الذى ابغيه ؟ هل اريد ان اقنع نفسى بانى افهم بعض مايجب ان يفهمه الانسان عن الظلم والعدل . ولكن ما الفائدة . ان المطلوب ليس الافكار . ان الافكار ليست كل شىء وقد لا تكون لها قيمة على الاطلاق بلا تصرف وعمل عندما ترتفع رعوس المظلومين ولو بمقدار بوصة او اقل فوق حمأة الوحل الفارقين فيه مواجهين من خلال تجارب لا حصر لها . مهمة تحقيق عدالة ترتبط بواقعهم وتعتمد على ماحققه العقل الانسانى فى هذه الدنيا من انجازات . عندئذ سوف تكون كلمات مثل شيوعية او اشتراكية او عدالة اجتماعية . ليست مجرد كلمات او شعارات للمتاجرة . لن تكون كما يتصورها زهدى الوانا من الكوسة والفاصوليا والبادنجان فى طبخة تورلى . لن تكون مظاهر ولا اقنعة . لن تكون شيئا يخاف الناس منه ، او يتباهى الناس به ، يتنكر البعض له ويتاجر بشيئيمته او يتاجر بمدحه . ترى هل من اجل هذا كان مصرع والد تو ؟ لابد ان هذا المعنى الكبير ، هو الذى ساعده على ان يموت متحديا رافع الرأس .

**« انتهت المسودة »**

بعد كتابة تلك الاوراق . عدت من جديد الى مقهى الشطرنج .

ولاحظت أن لعبى قد ساء الى درجة كبيرة ، فكنت أسهو ويشرد تفكيرى  
فى لاشيء . فأرتكب أخطاء . وألقى الهزيمة تلو الهزيمة . كنت  
عصبيا ، وكنت أشعر بأنى أنتظر شيئا مالا أعرف كنهه ، وقد تعودت  
من قبل على نوع آخر من الانتظار ، كان غالبا مايسبق شروعى فى كتابة  
رواية اذ أعانى من احساس مريع بالعدم ، بالخواء المطلق . كائى  
لا شيء ، صمت رهيب داخلى ومن حولى ، ودمدمة مكبوتة لا تريد  
أن تفصح عن طبيعتها تنتابنى بين وقت وآخر . كنت أسمى هذه  
الحالة ، مخاض الرواية ، ولكن انتظارى الان يختلف ، فأنا خائف  
وعصبى ، ولا أدرى على وجه التحديد ، مصدر الخطر الذى يكاد  
يحدق بى . وزاد من مخاوفى ، أنى بعد فراغى من كتابة المسودة ،  
شعرت بالعجز عن كتابة أى عمل أدبى . هكذا قلت لنفسى ، وكأنى  
علمت بنبا نقله اليها بلا تبرير أو تفسير ، متجاهلا أنى صاحب القرار  
فى كتابة ما أريد أن أكتبه . وخطر لى أن مرضى بالانفلونزا كان نتيجة  
خوف أرهقنى ، وجعلنى عرضة للسقوط فى المرض ، وخطر لى أن  
ترددى على مقهى الشطرنج ، هو أيضا خوف من مواجهة حقائق  
الحياة القاسية ، كما كشفها لى زهدى . وكما دونتها فى مسودتى ،  
واحياتا كنت أهمس لنفسى ، هل انا هارب من الهول الذى يعدونه  
فى السجون للذين يتجراون بالافصاح عن مبدأ أو رأى . ثم شعرت  
ذات مرة ، وأنا جالس احتسى الينسون أرقب مباراة شطرنج ، أن  
ما أعانى منه . أفدح من تلك الضربات والركلات والهراوات التى قد  
تسقط على رأسى وجسدى للحظات ، ثم أفيق منها بالموت . لم يعد  
الشطرنج ، ولا البريدج فى النادي ، ولا سهرات فى البار ، ولا أى  
شيء آخر ، يعيد الى حواسى مذاق الحياة . نعم ان هذا الانتظار الفاجع  
ليس أنتظارا فنيا يسبق كتابة رواية . انه انتظار لموقف اتخذته من  
حياتى كلها . وان كنت لا أدرى كيف ، ولا ماذا أختار . سحقا لتلك  
الاوراق التى كتبتها بمظنة أنها ستساعدنى على الشفاء . انها كانت  
نموا لسرطان ، لفوضى فى نمو الافكار ، لاختلال فى المشاعر يتضخم  
يوما بعد يوم ، ولا أدرى كيف أعالجه . ولا أين . حتى كان صباح  
ذلك اليوم .

كنت أعبى الميدان فى طريقى الى القهوة ، يوم آخر مثل بقية  
الايام ، عندما رأيته أمامى . تو . هاهو يسير هناك ، مندفعاً فى  
طريقه ، قادمًا فى الاتجاه المضاد ، وخفق قلبى ، وتهلل وجهى ،

ووجهت اليه عيني ، في انتظار أن تلتقي العيون . كان يحمل ربطة كبيرة . يبدو أن داخلها كتب أو أوراقا . كان يقترب مني وأنا اقترب منه . دون أن ينظر في اتجاهي ، وأصبحت واثقا أنه سيعبرني دون أن ينتبه الى وجودي بجواره ، بل خشيت أن يراني فيكتفي بتحيتي برأسه ، ويمضي في سبيله . . ماكنت لأرضي بأن يحدث هذا ، لاي سبب من الاسباب . وهتفت بأعلى صوتي استوقفه :

- تو . . الى أين أنت ذاهب ؟

وأقبلت عليه بوحشة كبيرة ، كنت أريد أن أعانقه ، لولا أن وقفته وخطواته لم تسمح لي بالعناق . وسألته في حماس لم أعرفه منذ وقت طويل :

- الى أين ؟

قال :

- الى النادي . .

سألته :

- وما هذا الذي تحمله ؟

- قال دفاتر البريد . .

وأشار بيده في اتجاه أحد الشوارع الضيقة الى الميدان وقال :

- كنت هناك في المطبعة أسلمها . .

قلت على الفور :

- أنا أيضا ذاهب معك الى النادي . .

هيا أوصلك . .

نسيت في لحظة واحدة الشطرنج ، وكل شيء ، ولم أبال بالدهشة

التي ارتسمت في عيني تو وهو يسألني مستريبا :

- هل أنت ذاهب الى النادي حقا ؟

قلت بلهفة :

- طبعاً . .

قال في عجب :

- ولكنك تغيب عنا لاسبوع طويلة . . أكثر من شهرين . .

قلت له وأنا صادق تماما فيما أقول :

- فعلاً . . ولكن النادي وحشني . .

كان كلامي ساذجا ، وتفسيرى لوقوفى المفاجيء لا معنى له ، فالذي

يسيطر على هو شعور قوي بالأنا يقلت تو مني .

نظر الى تو في ارتباك ، وسار الى جانبي في طريقنا الى موقف  
السيارات ، وما كاد يرى سيارتي ، حتى ابتسم وقال :  
- اتذكر يوم السباق ..  
قلت :  
- نعم اذكره ..  
واشرت له :  
- اركب .. فلن أسابقك هذه المرة ..  
وتحركت السيارة ببطء ..

## الفصل العاشر

وسع تو أوراق البريدج عند قدميه ، وأطل من نافذة السيارة على يمينه ، معلنا بطريقة غير مباشرة ، أنه لا يتوقع أن يدور بيننا حديث ، وكنت بدورى مشغولا بهواجسى التى تحدثنى بأن هذا اللقاء بينى وبين تو كان لابد أن يتم ، فهو ليس لقاء صدفة ، ولو كان هذا اللقاء قد تأخر ، لاكتشفت أهميته ، ولسعت الى تدبيره ، وكنت واثقا أنى منطلق مع تو ، ليس فى توصيله الى النادي ، بل الى شيء أعمق وأخطر ، ولكنى لا أهرى ما هو هذا الشيء ، ولا أستطيع أن أتنبأ به . ولما مضت فترة طويلة من الصمت ، وجدتنى أقول له متخلصا من هواجسى :

— ها أنت ترى انى اقود برزانة وتؤدة .. .  
قال ياسما :

— ظلى الحقيقة .. . كنت أسأل نفسى لماذا لا تسرع كهادتك ؟  
قلت فى مرح :

— حتى لا تذهب مرة أخرى الى قسم الشرطة .

فاحمر وجهه وسكت ، ورفض أن يعلق بشيء .

فقلت فى الحاح محتفظا بمرحى :

— هل تريد أن أهيب لك فرصة للاحتكاك بهم ؟

اجاب فى خجل :

— ولماذا المشاكل ؟

وعاد الى تشاغله بالنظر من النافذة على يمينه . ومضى بعض الوقت حتى اقتربنا من النادي ، فسارعت أسأله :

— هل أنت مرتاح لعملك فى النادي ؟

اجاب :

— أبدا .. .

— ولماذا .. هل لديك مشاكل ؟

قال وفي صوته حزن :

— أبدا .

واوقفت السيارة ، وهبطنا ، ومضى خلفى الى الباب ، وماكدنا نعبره ، حتى استأذن واتخذ طريقا آخر الى حجرات النادى ، وتركنى وحدى ، لا أدري ماذا افعل بالمقاعد والمناضد الخالية من الاعضاء . وكان من المستحيل ان اراجع ، واغادر المكان ، فجلست اراقب بعض الخدم يقومون بأعمال النظافة ، ويثرثرون بأصوات عالية حادة ، كانوا قد صمتوا للحظات عند دخولى ، وبدت على وجوههم الدهشة ، ثم عادوا الى عملهم وثرثرتهم . هل انهضوا فتنش فى الحجرات باحثا عن تو ؟ .. واقول له : انى أريد ان أحدثك . ولكن فى أى أمر أحدثه ، وما الذى أريده منه على وجه التحديد ؟ .. ان من أصعب المواقف التى اواجهها ، تلك التى اتورط فيها من خلال انفعالات المشاعر . قد أكون سخيفا الى أقصى حد ، قد أكون ساذجا ابله الى درجة لا تطاق . ومع ذلك فهواجسى تنبئنى أن تورطى مع تو ، إيا كان نوع هذا التورط سوف يؤدى بى الى شيء هام ، وأنه لا معنى للتحفظ الاجتماعى أمام هذه المشاعر الملحة التى تنتابنى . وقبل أن أقدم على أى تصرف ، دخل تو القاعة التى اجلس فيها ، ورأى ، وابتسمت له ، فhez رأسه ، ومضى يخاطب الخدم ، وأنا لا أحول عيني عنه ، ثم التفت الى ، ورايته قادما نحوى . وارتبكت . جاء يسألنى اذا ماكنت أريد فنجان قهوة . قلت له انى اكون أسعد مخلوق فى الدنيا لو حقق لى هذه الامنية ، لولا خجلى من انشغالهم بأعمال النظافة وان الوقت يبدو غير مناسب لتلبية مثل هذا الطلب . فصاح تو فى أحد الخدم وطلب منه اعداد القهوة . فهتفت به :

— وماذا تشرب انت ؟

ولم أترك له فرصة للاعتذار . وهكذا جلس الى جوارى فى انتظار قهوته السكر زيادة ، وقهوتى السادة . ودفعنى ارتبساكى الى محاولة تبرير حضورى المبكر ، قلت له انى مهموم ولدى مشاكل فقال ببراءة مضحكة انه لا يتصور أن رجلا مثلى لديه مشاكل من النوع الذى يثير الهموم . فقلت له برزانة اكثر اضحاكا انه عندما تتقدم به السن سوف يكتشف أن هموم الكبار اشد بكثير من هموم الشباب . قال بسرعة وحسم :

— الا أنا .

قلت :

— الدنيا مازالت امامك ...

قال :

— ولكن ليست هذه حياة ...

قلت :

— هذا يتوقف عليك .. يجب ان تنتهى اولا من دراستك في

الجامعة ..

قال وكأنه يتخلص من كلمات لا تعجبه :

— طبعاً .. طبعاً ..

انى أنتظر انتظار الصائد الذى قد يجلس طوال النهار أو الليل ،  
ففى انتظار سمكة تلتقط الطعام . فكنْتُ أتعمد الذهاب الى النسابى  
مبكراً بين يوم وآخر . حتى أصبح ترددى فى ذلك الوقت أمراً لا يثير  
الدهشة ، وكان تو يرانى ، وقد يشرب معى فنجان قهوة ، ويشتر  
معى بأخبار الاعضاء ، وأنا أستمع اليه فى ملل وضيق . لانى عاجز  
عن توجيه الحديث الى ما أريده ، والادهى من ذلك انى لا أعرف ما هذا  
الذى أريده . حتى كان صباح اليوم الذى جاءنى فيه تو فى حالة  
نفسية مضطربة ، كانت فى عينيه نظرة قريبة ، وكان ممسكاً فى يده  
دفتر البريد . وقد اكتشفت أنه جاء بهذا الدفتر فى يده عن عمد ،  
وأنه يريد أن يسجل عليه شرحاً لما يريد أن يتحدث عنه .  
قال لى :

— أريد أن أستشيرك فى أمر خاص .. هل لديك مانع .. أرجو

الا اضايقك .

خفق قلبى ، وتوقد ذهنى ، وأصبحت قدرتى على الملاحظة  
أكثر حدة ، شعرت أن قوة ابصارى قد تضاعفت ، ولم أقو على الكلام  
من شدة الانفعال ، فهزرت رأسى مرحباً . ويبدو أن هذا الترحيب  
الصامت شجعه ، أكثر من أية كلمة أنطق بها .

فقال ببطء وبمحاولة ناجحة تماماً فى السيطرة على لسانه حتى

لا يتلعثم :

— لاحظت طبعاً انى اتلعثم فى الكلام .. وأن من يسمعى لا يفهم

كل ما أقوله .. لانى اذا ارتبكت تحدثت بسرعة غير عادية واختلطت  
الكلمات فى فمى .. وهذا يضايق من يسمعى .

هزرت رأسى موافقاً ، ولم أنطق بكلمة .

— نمضى يقول وقد زاد رضا بصمتى :



— بالأمس كان هنا الدكتور الحمزاوى الطبيب النفسى .. كان يلعب البريدج .. وحدث أن وقفت اتحدث معه . فقال لى فجأة :  
أن هذه اللعثة قد نشأت ولاشك من صدمات شديدة وأنا صغير .  
فتحت أذنى أكثر ، واحتفظت بوجه محايد . وسمعتة يقول :  
— فى الحقيقة .. أنا حياتى صعبة ، وهذه اللعثة إن تعالج إلا بحل مشاكلى .

أقاطعته صارخا .. كيف يستطيع هو أو مليون مثله حل مشكلة فقدان الأب والتيتم على هذا النحو الذى حدث له .. ومنعت نفسى بصعوبة من اطلاق الصرخة . كان فضولى أقوى من صرختى .. وإذا به يضع دفتر البريدج على المنضدة أمامنا . ويخرج قلم حبر جاف من جيب بنطلونه . كانت صفحة تسجيل النتائج مقسمة الى قسمين قسم مكتوب على رأسه « نحن » وقسم مكتوب على رأسه « هم » .. وكتب تو تحت « نحن » شارخا :

— هنا حياتى .. والنتيجة صفر ..

ثم كتب تحت « هم » :

— هنا الموت .. والنتيجة « جراند سلام » .

وهى أعلى نتيجة يصل إليها فريق فى مباريات البريدج .  
والتفت الى وهو يشطب على كلمة « حياتى » سائلا :

— لماذا أعيش ؟ .. الا اذا كنا نولد لنموت ..

وهنا بدا واضحا أنه يريد أن يسمعنى .

كانت نظراته تدعونى الى الكلام .

قلت :

— هذا سؤال صعب ياتو .

سألنى فى قلق :

— أليست لديك اجابة مقنعة ؟

قلت :

— أنا لى رأى طبعاً ..

فسألنى فى لهفة أشبه بالتحدى :

— ماهو ؟

قلت :

— كنت اتحدث ذات مرة مع الجنرال .. فى هذا الموضوع .. وبلغت ريقى .. وقد فوجئت بقوى مجهولة تكشف عن نفسها

فجأة ، قوى قريبة شرسة لا أدري من أين جاءت ، وماهى طبيعتها .  
تحاول أن تفرض نفسها على الحديث . وتريد منى أن أذكر اسم  
زهدي .. حتى لو استخدمت ذلك اللقب غير المباشر « الجنرال » .

واكملت ومخاوف تتجمع فى نفسى .. مخاوف من نفسى ..  
- « كنا نتحدث عن ابنه حسن .. الذى هاجر وترك كل شئ ..  
.. ان الجنرال غنى كما تعرف ولديه حديقة تدر عليه دخلا سنويا  
محترما .. قلت له على ما أذكر : أنى اعتقد ان الحياة واحدة ..  
كل البشر حياتهم واحدة ، ولهم روح واحدة .. ولكن لهم أجساد  
متعددة وأشكال مختلفة . هى نفوسهم التى تضم نصيبها من الحياة  
الكبيرة ..

ورفعت صوتى محاولا أن أشرح له :  
- ان الحياة تجرى فى أجسادنا كما يجرى الماء فى الاوانى  
المستطرفة .. أو كما تجرى المياه فى الدنيا .. مياه البحر فى  
المحيطات .. ومياه الامطار تصب فى كل مكان .. قد يختلف الاناء  
.. بحيرة أو ترعة أو بحرا أو نهرا .. وقد يختلف الطعم حلوا أو  
مالحا ، ولكنها نفس المياه .

وفجأة دفعتنى تلك القوى الغريبة فى داخلى الى أن أقول :  
- قد تكون أنت على صورة أبيك .. نفس الشكل مع تحويل  
بسيط .. ولكن حياتك هى نفس حياة والدك .. وهى أيضا ..  
أضفت بصعوبة :

- هى نفس حياة زهدى ..  
هذه المرة نطقت باسم زهدى سافرا .. كان تو يحدق فى وجهى  
صامتا ، وبدأ متشككا فى أهمية ماأقوله ، ولكنه فى نفس الوقت بدأ  
وكأنه يريد أن يسمع المزيد . كان فى تلك اللحظة والقلم فى يده ، أشبه  
بمن يمتحننى . لا بمن يستشيرنى .

رددت من جديد :  
- ان حياتك هى على نحو ما حياة أبيك .  
وسكت وقد أرهقنى هذا الخضوع المطلق لتلك الاصوات التى  
تخرج منى رغما عنى .  
ورأيته يهز رأسه ويقول :  
- لا أظن ..

قلت وقد فقدت تماما سيطرتى على نفسى :

— لقد كنت أعرفه ..  
نظر الى في غير فهم .. وكنت غير مصدق لنفسى ، فلما عرفت  
أباه يوما ما ، ولكن هانذا أواصل كلامى :  
— لقد عرفت الظروف التى عاش فيها ..  
وتهدج صوتى مكملًا :  
— وأيضا أعرف كيف مات .. ؛  
وهتفت منفعلًا :  
— كان رجلا عظيما ..

أوشك أن يقفز هاربا ، أو هكذا خيل ألى ، ولعللى أنا الذى كنت  
أريد أن أهرب من نفسى . كانت رأسه تتلقت بسرعة عصبية فى كل  
اتجاه ، لا بحثا عن شيء ، ولا خوفا من شيء .. ولكنه كان كالمحاصر  
برؤى قاسية ..

وسمعه يقول وأنا أنظر بعيدا لا أريد أن أواجه عينيه :  
— وما هى عظمتة .. وقد تركنى على هذه الحال ..  
قالها بسرعة ولعثة ، مع كلمات كثيرة لم اتبينها ..  
قلت :

— يكفى أنه مات من أجل مبدأ يؤمن بأنه يسعد البشر .  
قال وهو ينقر بالقلم بقوة على دفتر البريدج :  
— ومالى أنا وكل العالم .. هل ترانى سعيدا ؟  
أجبت بحدة :

— أنت تتحدث بلغة الجنرال ..  
قال تو :

— عنده حق ..  
قلت ساخرا وأنا أواجهه متغلبا على مخاوفى :  
— لا تكن جاهلا مثله ..  
قال :

— وما الذى فعله والذى بموته ؟  
قلت :

— ترك من بعده معنى .  
قاطعنى :

— أى معنى .. هل هناك شيء أكلته أو شربته ؟ ..  
قلت :

— على الأقل تعلمته ..

صاح :

- متى .. انا لم اتعلم منه شيئا على الاطلاق .. كل أوزاقه  
أخذوها .. كل صورته . لا توجد له صورة واحدة فى بيتنا . لا كبيرة  
ولا صغيرة .. لا شيء بقى .. كانوا يهاجمون البيت .. فيمزقون  
المراتب وينبشون القطن .. ويحطمون المقاعد . ويتحول بيتنا الى  
انقاض .. هل يرضى أب أن يعرض أولاده الى هذا ؟

قلت :

- هذا أهون مما يتعرضون له فى انسانياتهم اذا استسلموا ..

صاح :

- ما الذى تريده .. أن أموت مثله فى السجن ؟

قلت :

- لا .. ليس هذا ما أريده ..

فقاطعنى وهو يتذكر :

- لقد مررت على جميع دور الصحف والمجلات أطلب مجموعاتهم  
القديمة التى صدرت أيام موته .. كنت أريد أن أقرأ ما كتبوه عنه  
.. لم أجد شيئا على الاطلاق .. لم أصدق .. حتى أنى جننت ،  
ذهبت الى دار الكتب ، وأعدت طلب نفس الصحف والمجلات ..  
الاهرام ، الاخبار ، الجمهورية ، روزاليوسف ، آخر ساعة ، المصور  
.. كان تلك النسخ التى تحتفظ بها دار الكتب سيكون فيها ما أريد  
وطبعاً .. كانت هى هى .. ولم أجد شيئا .. حتى أنى شتمت الموظف  
هناك .

قاطعته :

- مثل رجال الشرطة الذين تتشاجر معهم ..

قال فى انفعال شديد وبسرعة يصعب ملاحظتها :

- نعم .. انا لا أحتلمهم .. لن أنسى هجماتهم علينا .. وكتبى  
المزقة .. حتى حقيبة المدرسة سرقوها .. هل تصدق ؟ أنهم كانوا  
يفتشون الملابس الداخلية لأمى . قمصان النوم والكيلوات .. هل  
تصدق .. فما المعنى الذى تقول أنه تركه بموته لقد خرب بيتنا .

قلت :

- أكد .. بموته أن فى الحياة أشياء تستحق أن نموت من

اجلها .

واختطفت دفتر البريد من أمامه واختطفت القلم من يده ..

وقلت مشيراً الى ماكتب : هنا تكتب أنت أن الحياة تساوى صفر ..

وأن الموت يساوى كل شيء .. وهذا خطأ .. الحياة تساوى كل شيء  
حتى لو دفعت الموت ثمنا لها .. لان الموت ليس عقبة أمام الحياة .  
قال وكأنه تلميذ يناقش تلميذا آخر فى مسألة حساب .  
- معنى هذا أن الحياة هى الموت ..  
قلت :

- نعم .. بمعنى أنك كلما شعرت بالحياة أكثر ، كان تعرضك  
للموت أكثر . ذروة الحياة ، هى الحدود الفاصلة بينها وبين الموت  
.. وكما قلت لك - الذى يموت هو بعض أجسادنا .. هو بعض  
أشكالنا .. بعض نفوسنا .. أما الحياة فباقية فى ملايين الملايين من  
البشر الاحياء الآن . أو الذين سيولدون غدا والى ما شاء الله .

سكت برهة ثم واجهنى بسؤال بسيط حاسم :

- وماذا أفعل ؟

هتفت :

- حاول أن تفهم ..

قال :

- أو انتحر ..

قلت فى هدوء متعمد :

- هذا أمر لا قيمة له ..

وهنا هجم على تو بعض الاعضاء ، ينادونه أن يأتى لهم بأوراق  
اللعب ، فذهب اليهم ، وانتظرته ، ولكنى فوجئت به يجلس ويشاركهم  
لعب البريدج .

كنت مرهقا .. ولم أعد أحتمل المكان . وكنت قد اعتسدت  
الانصراف بمجرد حضور زبائن الصباح . وكانت صلتى قد انقطعت  
تماما بمعارفى فى النادى الذين يأتون عادة فى المساء . حتى زهدى  
كنت لا أسال عنه ، ولا أهتم بأخباره . وكان تو يقول لى أحيانا أنه  
سأل عنى ، وأنه دهش عندما علم أنى لا احضر الى النادى الا فى  
الصباح الباكر . وابلغنى أكثر من مرة أن زهدى يطلب أن يرانى .  
والان أشعر بأن تهربى منه ، كان بسبب تلك القوى التى تنشط فى  
عقلى ولا أستطيع أن أسيطر عليها .. انها تقاوم بخطة مدبرة ، ان  
ألتقى بزهدى . وهى التى دفعتنى الى اتهامه بالخجل أمام تو .. ومن  
يدرى فقد تطلب منى أشياء أخرى ، أكاد أشعر أنها ستدفعنى دفعا  
الى الايقاع بين زهدى وتو . هل أنا شرير الى هذا الحد .. أكون  
قد جننت .

خرجت من النادي ، وسرت فى الشوارع هائما .. اتفرج على  
الفتريينات فلا ارى غير زهدى وتو ووالده المقتول .. وجلست فى  
محل حلوى بشارع صلاح سالم ، واكلت قطعتين من الجاتوه بشهية  
وخطر لى أن اذهب الى مقهى الشطرنج ، ولكنى لم أجِد الفكرة  
مستساغة ، وفضلت أن أقضى الوقت فى مراقبة زبائن المكان ، أغلبهم  
من العشاق الذين يجمعهم عشق برىء ، خطيبة تضع يدها على  
المائدة لتلامسها يد خطيبها ، والنظرات بينهما حاملة ولكنها مرهفة ،  
وعلى الموائد الاخرى بنات السوق . لعلهن تحت امره منيرة بيجو ،  
يتفاهمن مع الزبائن والجرسونات ، وينظرن حولهن ، وكان المحل  
هو بيتهن الخاص . وشربت القهوة باللبن ، وشربت كازوزة ، وأخيرا  
قمت ، أتسكع من جديد ، حتى وقفت أمام باب سينما من دور  
الدرجة الثانية أو الثالثة ، تعرض فيلما من أفلام الكراتيه . قتل  
ووحشية ودماء .. وانتابتنى رغبة ملحة أن أدخل الفيلم فى حفلة  
بعد الظهر . وجلست فى الظلام بين شبابه أغلبهم من عمال الجراجات  
والميناء ، اشاهد بالالوان الاجساد تمزق بضربات اليد ، والعيون  
تفقا بالاصابع التى تخترقها ، والدماء تنبثق من الافواه ، والصيحات  
الوحشية تزار بين القتلة والمتصارعين . وخرجت وقد ذهب النهار ،  
وجاء الليل ومعه أضواء الكهرباء ، كان ارهاقى يدفعنى الى العودة  
الى البيت ، واكتشفت أنى نسيت أين تركت سيارتى ، فذهبت  
ابحث عنها حائرا ، حتى وجدتها كما تركتها فى الصباح بالقرب من  
النادى ، ووقفت برهة مترددا ، أفكر فى الصعود الى النادى ، أو  
فى الحقيقة الصعود الى « تو » .. ولكن ما الذى أريده منه بالضبط  
.. وهنا سمعت تلك الهواجس المخيفة تدق بعنف فى أعماقى معلنة  
فى سفور عن هدفها ، أنت تريد أن يعلم تو من الذى قتل والده ؟ ..  
أنت تريد من تو أن ينتقم لابيهِ ، أنت تريد من تو أن يقتل اللواء  
زهدى .

ان أى واحد منا يكون عرضة لاغرب وأبشع الهواجس ، والطفل  
الذى يفار من أبيه قد يفكر فى قتله كما يقول فرويد ، ولكنه  
لا يفعلها .. والولد قد تنتابه خواطر جنسية نحو أمه .. ولكنه  
ردع نفسه ، ان أى شيء ، أى خاطر من أى نوع ، قد يخطر بالبال ،  
وقد يشغل العقل ، الزوجة الشريفة قد تفكر فى الخيانة . للحظة ،  
ثم تنبئه الى فساد الخاطر وتطرده . كل خاطر محتمل ، ولكن ليس  
كل تصرف بمعقول .

كنت أقود سيارتي هاربا من النادي ، ومن تو ، ومن خواطر الكراتيه المفزعة ، والتي لاتليق برجل في مثل عمري ، ان لم يكن في مثل ثعافتي . فما فائدة أن يقتل تو ، اللواء زهدى لينتقم لابييه ، هذا معنى بدائي ساذج لن يؤدي الا الى ضياع تو ، ولن يكون ضياعه بسبب مبدأ أو من أجل عقيدة ، ولن يترك بضياعه معنى يستفيد منه البشر ، سيكون ضياعا في جريمة قتل .. حماقة وشر ولا اكثر من هذا .. ان قتل اللواء زهدى لن يصلح البلد ، ولن يحقق العدالة .. ان الامر يحتاج الى عمل ضخم ، يقوم به آلاف ثم ملايين الناس ممن يؤمنون به .. اذن ماالذي جلب هذه الخواطر السوداء الى راسي ايكون العجز الذي أشعر به عن قدرتي في مقاومة الظلم وأعمال القسوة والارهاب فتنتابني هذه الافكار الصبائية عن القتل والاغتيال ..

كنت في سريري أتقلب ، ولا اثر لقرص الفاليوم الذي ابتلعت ، وابتلعت قرصا ثانيا وثالثا ، ولا أدري متى زارني النوم .

حاولت أن اعود الى مقهى الشطرنج ، وبذات جهدا خارقا ، لاجلس الساعات الطوال أراقب اللاعبين ، أو أشارك في اللعب ، وقد ابتعدت عن اللعب الجاد ، ورحبت بمجموعة من المسنين ، يلعبون الشطرنج لقتل وقت الفراغ ، مستفيدين بعض حيويتهم المفقودة ، بكلمات التحدي والسخرية والشماتة أو حتى الشجار الصاخب مع الخصم الذي يلاعبونه .. ولكن عذابي كان كبيرا ، كنت أدرك اني أعتقل نفسي في ذلك المقهى .. وكان لابد أن تأتي اللحظة التي اثور فيها على هذا الاعتقال ، فأذهب الى النادي وأخترت أن يكون الوقت مساء حتى لا ألتقي وحدي بتو .

وما كدت أدخل ، حتى علمت أن اللواء زهدى قد أصابته ذبحة صدرية تهدد حياته بالخطر . وفي نفس الليلة ، علمت أن تو ، يقضي الليل في بيت زهدى .. بينما تلازمه في الصباح ممرضات يشرفن على تمريره .

كان تو ، يلعب البريدج ، ولم يتبادل معي كلمة واحدة ، حتى جاءت الساعة الثامنة والنصف ، فنهض ، واتجه الينا ، ولما رآني قال لي باسم :  
- أنا أبلغ زهدى بك كل ليلة سؤالك عنه .

وأستأذن منصرفا ، وما كاد يبتعد ، حتى قفزت من مقعدي ، وأسرعت الحق به .

استوقفته قائلاً :  
- ترى ماهو الميعاد المناسب لزيارته ؟  
قال :  
- الزيارة ممنوعة ..  
سألته :  
- هل حالته خطيرة ؟  
قال :  
- الحالة احسن .. كل يوم يمر يبعد بنا عن الخطر ..  
أخرجت من جيبى ورقة كتبت فيها رقم تليفون منزلى . وأعطيته  
له طالبا منه ان يتصل بى فى أية لحظة من الليل اذا احتاج الى .  
واذ بى أسأله :  
- هل أنت حزين من أجله ؟  
قال فى براءة :  
- طبعاً ..  
قلت كالمجنون وأنا اظهر بالحكمة :  
- لا تفسد شبابك بالحزن على العجائز أمثالى .. اعلم ياتو ..  
ان اللواء زهدى هو الذى قتل والدك فى السجن .  
أطرق برأسه وقال هامساً :  
- أعرف هذا .  
نظرت اليه أحاول أن أفهم ، ونظر الى محاولاً أن يفهم ، ولم  
يفصح لى ، ولم أفصح له ، واستدار هابطاً الدرج فى طريقه الى بيت  
أثناء زهدى .  
قلت لنفسى : انه سوف يقتله ، ثم قلت : لو فعلها سأكون انا  
قائمه ..



## الفصل الأخير

كانت جنازة اللواء زهدى بسيطة وقورة ، وهم فى الاسكندرية لا يشيعون الجنازات بالسير وراء النعوش ، يكتفون بالصلاة على الجثة فى المسجد بعد ان يستمع المعزون الى بعض آيات الذكر الحكيم ، ثم تخرج الجثة بعد الصلاة الى عربة تنتظرها خارج ساحة المسجد ، ووقف اهل زهدى واغلبهم جاء بملابسه الريفية ليصافحهم المعزون وينصرفوا ، لم يكن هناك من يبكى بين الرجال ، ولعل حسن لو كان موجودا لبكى ، وحضر اغلب اعضاء النادى هذا الوداع الاخير ، وبعدها انصرفوا الى النادى ، واوقفوا لعب البريدج تلك الليلة حدادا على روح المرحوم . ولكن البار استمر فى تقديم المشروبات الروحية . وكان اهم مادار فى حديث الاعضاء فى السهرة ، هو الاستفسار عن حسن ، ومن ارسل له يبلغه ، وهل يجدر بالاعضاء ان يرسلوا له برقيات التعزية ، وما هو عنوانه فى كندا ، ام الافضل الانتظار لانه لابد قادم ليباشر امور ميراثه .

وماذا يكون مصير الارض لو لم يحضر حسن . وكنت معهم استمع بشغف الى كل التفاصيل ، اما تو فكان قد تركنا . ولم يقل الى اين هو ذاهب ، وقد يكون قد ذهب الى منيرة بيجو ، فالمسكينة كانت شديدة الحزن على وفاة زهدى ، وكان تأثرها واضحا ، وهى التى شهدت اول نوبة للمرض ، ولعلها اقامت بدورها ليلة حداد فامتنعت عن العمل تلك الليلة مثلما منعوا البريدج فى النادى .

وكان هناك امر مثير آخر ، فبين الذى جاءوا الى النادى بعد الجنازة . السفير شكرى منصور ، وكان يدخل النادى لاول مرة منذ ان قاطعه بعد حادث اصطدامه بابنه يسرى ، وقد انهالت عليه عبارات الترحيب من كل جانب ، وكان حادث حضوره ، منافسا قويا لحادث تشييع جنازة الجنرال . وسالونى اكثر من مرة ، كيف مات زهدى ، فكنت اجيب واجما وانا احرك يدي فى الهواء :  
- هنا امر الله .

كانوا يريدون منى التفاصيل ، ولكنى ضمنت بها ، وكل ما عرفوه منى ، هو انى استخدمت سيارتى السريعة فى احضار الطبيب ، ولكنه وصل بعد فوات الاوان ، فيرد الواحد بعد الاخر ، ما الذى يستطيع ان يفعله الطبيب عندما تحين الساعة . وقال شكرى منصور متحسرا ، ان زهدى أخطأ عندما فاجأته النبوة ، كان راكبا سيارته ، وكان قد وصل بالكاد الى باب عمارته ، ولو كان عاقلا ، لظل مكانه حتى يكتشف احد أمره . وكان لابد ان يحدث هذا بسرعة ولكنه بذل جهدا يستحيل ان يتحملة الكلب المريض ، وهبط من السيارة وسار حتى الباب ، وصعد بضع درجات ، وكل درجة يصعدا كانت تدبح قلبه ، ان اطار الكاوتش عندما يفرغ من الهواء وتسير عليه ولو بضعة أمتار يتمزق ولا يصلح بعد ذلك للاستعمال ، فما بالك بالقلب ، انه من لحم لا من مطاط ، وكل نبضة أقوى من اللازم كانت تهتك صماماته وتلفه ، ومع ذلك واصل زهدى السير حتى باب منيرة بيجو ودق الجرس ولما فتحت له ، ووجدته يلهث وجهه أزرق ، خافت . وسندته حتى لا يقع ، ويصيح شكرى . . ان الطبيب يأمرك لو جاءك الذبحة وانت فى الطريق ان تجلس مكانك على الرصيف لا تخطو خطوة واحدة ، ومنيرة لا تفهم فى الطب ، ولكنها عرفت ان الرجل فى حالة خطيرة . قالت ان يده كانت مثلجة . . العرق الغزير يتصبب من جبينه ، وكان يتنفس بصعوبة . وكان يمسك بيدها ويعتصرها بشدة توجعها ، كانت قبضته قوية بشكل غريب ، كادت تحطم يد منيرة ، ولم تكن تعلم ان بعض ما تشعر به ، هى آلام الانقباض التى تعتصر قلب زهدى ، وطلبت منه ان يدخل ويستريح ، ولكنه رفض ، ولعله كان يعرف انه سيموت ، وخشى ان يموت فى بيتها ، كانوا سيقولون ان جنازته خرجت من بيت منيرة بيجو . ولكن من الذى يهتم بهذه الامور امام الموت ، كان يجب ان يدخل ويرقد فورا ولا يتحرك أبدا من مكانه حتى تنتهى الازمة مهما طالت الاسابيع ، ثلاثة اسابيع على الاقل كان يجب ان يقضيها بلا حراك ، ولكنه استجمع قواه وطلب منها ان تساعد فى الصعود الى مسكنه . هل هذا معقول ياناس ، ان موافقة منيرة على طلبه واستسلامها له هو الذى كان فيه القضاء الاخير عليه .

ويسكت شكرى لحظة يسترد فيها انفاسه ، ثم يقول :  
 - أنا قلت لمنيرة انها هى السبب . . . قالت لى انها كانت لا تعرف . . وهذه هى اول مرة تواجه فيها مثل هذه الحالة ، ولكن جهلها

وعناد زهدى هما اللذان قتلاه .

وقال سعفان وهو يتلفت حوله :

— من حسن حظنا أن رءوف لم يسمع هذا الكلام .

كان رءوف قد انصرف الى بيته بعد الجنازة مباشرة وكان منهاورا ، وهو الذى أصيب بالذبحة مرتين وكان فى الايام السابقة على الوفاة يطمئن الاعضاء ، ويؤكد لهم أن زهدى سوف يشفى ، كان يقولها فى يقين ليطمئن نفسه ، وكان يتهم كل الحاضرين بالجهل فى موضوع امراض القلب ، ويقول أنهم يخلطون بين الذبحة ، واللغظ وتلف الصمامات ، وتضخم الاورطى ، وكان يقرأ المجلات الطبية التى تتناول هذه الموضوعات ، ويعرف كل الادوية ، وتأثيرها ، ومدى فاعليتها ، فلم يجرؤ أحد على مناقشته ، ثم تأثروا بكلامه ، فاستسلموا لوهم أن زهدى سوف يشفى وسيعود اليهم ليحى جلساته المرححة البديئة .

وكانوا يسألون تو عن اخبار زهدى ، وكان يطمئنهم ، وقبل وفاته بيومين ، قال لهم : أنهم يستطيعون زيارته ، فجمعوا انفسهم ، وذهبوا لزيارته ، ولم اذهب معهم لانى لم أعلم بنيا السماح بالزيارة ، وقالوا ان زهدى ، كان ضعيفا ، شاحبا ، ولكنه كان مرحا ، ولم يسلموا من طول لسانه ، وطلب من منيرة أن تصعد وتنضم اليهم ، رقصوا ساعتين لم يكفوا فيهما عن الضحك .. حتى صاح فيهم زهدى :

— انتو يا اولاد الكلب عاوزين تموتونى من الضحك .  
فصاحوا :

— عمر الشقى بقى .

فقال متحديا ، انه لن يموت . وانه بمجرد أن يشفى سوف يتزوج ، وذكر ابنه حسن ، وقال انه يفكر فى أن يرسل للولد برقية يطلب منه الحضور .

واختلفوا فى وصف زهدى وهو يتحدث عن ابنه .. قال شكرى انه كان متأثرا يوشك أن يبكى ، وقال رءوف على ، انه كان ساخرا يشتم ابنه ، وتحدثوا عن الممرضة التى كانت تقضى ساعات النهار مع زهدى ، وتسأل سعفان فى خبث ، اذا ما كان زهدى مات ، لانه حاول مع الممرضة ، واعترفوا بانها بنت سمراء مسممة ، وان الموت على يديها أو فى احضانها هو الذ انواع الموت ، وذكروا أن رءوف سأل

تو .. اذا ماكانت تلك الممرضة حقيقية ، أم هي ممرضة مزيفة من بنات منيرة ييجو ، واكد له تو انها ممرضة فى مستشفى المواساة . فاطمانوا تماما الى أن زهدى سوف يشفى حتى فاجأهم الخبر صباح يوم الجنازة . وعرف بعضهم من النادى ، فاتصلوا بالآخرين ، وكان الاهرام لم ينشر النعى . ونشره فى اليوم التالى لتشجيع الجنازة ، لان الوفاة حدثت حوالى الرابعة صباحا ، او قبل ذلك بدقائق . فعندما دخلت على زهدى مع الطبيب كانت الرابعة والرابع تقريبا وفحصه واستمع الى نبضات قلبه بالسماعة واذنه ، وشك عينه ورفع ساعديه وخفضهما وجس أصابعه ويطن قدميه .. قال انه مات منذ حوالى ربع ساعة ، وكان تو واقفا ، فجعل يخط بكفه على فخذه الايمن خبطات متتالية شديدة ، وكانت أسنانه تعض على شفثيه ، اما أنا فقد خيل الى انى فى كابوس ، كان جسد زهدى راقدا على السرير فى بيجاما بنفسجية وأزرار حمراء ، وكان يبدو أصفر من المعتاد ، ورأسه مرتفع قليلا ، وعيناه مغمضتان ، وبشرته تميل الى السواد ، والى جانبه كومودينو عليه كميات لا حصر لها من الادوية .. وكان جو الحجرة خائفا رغم أننا كنا فى فبراير والبرد قارس فى الخارج .

وقال لى الطبيب :

— آسف .

وبدا عليه الضيق ، فقد كان متشككا فى جدوى حضوره فى مثل هذا الوقت المتأخر أو المبكر . وخرج الطبيب فتبعه تو ، ولما رأتى أبادر بالخروج معهما سألتى فى دهشة :

— أتركه ؟

قلت :

— وما فائدة البقاء ..

قال :

— لا أدري كيف اتصرف .. سأهبط وأوقفه أليس منيرة . قلت له وأنا أفكر فى عدم قدرتى على البقاء وحدي مع الجثة :

— أوقفها أنا ..

سألنى تو :

— اتعرفها ؟

اجبت :

— لا ..

قال :

- ساهبط أنا ..

ثم قال محتدا :

- ألم تقل له منذ ساعة أنك تريد البقاء معه .

وأصابنى الشلل . كان تو كمن يقرأ ما فى داخلى ، يعرف خفايا  
واسرار كل الذى جرى فى اعماقى ، وقبل أن أفيق كان قد خرج  
مع الطبيب ، واغلق على الباب .

لم أجرؤ على العودة الى الحجرة التى يرقد فيها زهدى ميتا ،  
وذهبت الى نفس المقعد الذى كنت اجلس عليه وأنا استمع الى حكاياته  
التي يرويها ، وقبل أن اجلس عدلت عن رأى ، وذهبت الى النافذة  
وفتحتها ، اطل على مدينة الملاهى بمراجيحها والعابها ، ولكن لفحة  
برد قوية جعلتنى أسارع باغلاق النافذة .. وجلست أستريح .

منذ ساعة واحدة كنت هنا فى نفس المكان ، وكان زهدى مازال  
حيا . والان انتهى كل شئ ، وبقي أن أستريح ، لم اكن حزينا  
لموته ، وبدا لى أن كل ما يحدث حولى ليس حقيقيا ، وأنه خيال  
يدور فى عقلى ، خيال صبيانى مريض ، ولكن الجثة الراقدة فى الغرفة  
المجاورة كانت تدحض أية محاولة للهروب من الواقع ، ان ذلك الجسد  
الميت هو الشاهد الحى الذى يواجهنى رغم أنى لا أراه . واجلس  
وبينى وبينه جدار . وتبينت فى تلك اللحظة ، انى عندما عدت  
من النافذة جلست على المقعد الذى كان زهدى يشغله وهو يروى  
لى حكاياته . وكدت أقوم . ولكنى شعرت بثقل ، وواصلت جلوسى ،  
وتشاءبت فى انتظار قدوم تو ومنيرة . لم اكن خائفا ، وكنت اقرب  
الى البلادة .. ورغم شدة الاحداث ، كنت بعيدا تماما عن الانفعال ،  
بل مسترخيا كأن شيئا لم يحدث ، او كأنى احلم وانا نائم فى سريرى  
وثير . . .

كان التليفون قد دق فى بيتى ، وكنت جالسا اقرا . فمن عادتى  
ان أوصل السهر فى القراءة أو الكتابة او مراجعة ادوار الشطرنج  
او الاستماع الى الموسيقى الكلاسيك حتى الرابعة أو الخامسة  
صباحا .

لقد اكتسبت عادة السهر من عشرات السنوات التى قضيتها فى  
أعمال صحفية ، والان وقد تفرغت للكتابة لازمتنى هذه العادة ،  
وأصبحت جزءا من روتين حياتى ، وعندما سمعت جرس التليفون  
بدق كانت الساعة حوالى الثالثة ، لم اتردد للحظة واحدة فى الجزم

بان تو هو الذى يطلبنى . رغم أنه لم يحدثنى أبداً من قبل ، ولم أعود أن أبادل المحادثات التليفونية مع أعضاء النادي ، صلتى بهم لا تعدو اللقاء فى النادي ثم أنساهم وينسونى ، ولم يحاول زهدى أن يطلبنى فى التليفون ، ولو كان حاول لوجد صعوبة كبيرة فى الحصول على رقم تليفونى فقد احتفظ به سرىا ولم أسمح بتسجيله فى دفتر التليفونات ، وأنا أعرف عنه الحذر ، كان يقول لى ، أن الذى عرفه أيام عمله فى الشرطة ، يجعله يشك فى الحديث ولو همسا فى أى مكان عام ، ويشك فى أى حديث فى التليفون ، كان يؤكد لى أنه لا يستخدم التليفون الا عند الضرورة ولا يثرثر بأى كلام لا لزوم له ، وأن هذه عادة اكتسبها من عمله ، مثلما اكتسبت عادة السهر من عملى .

سمعت صوت تو ملهوقا :

— لا مؤاخذه يا أستاذ .. زهدى بك تعبنا جدا .

صحت :

— ياخير .. اتصلت بدكتور .

قال :

— حاولت ولكنه لا يجيب .. فكرت فى أن عربتك سريعة ، وتستطيع أن تمر عليه اختصارا للوقت ، وتحضره .

قلت :

— سأفعل فورا ..

وأعطانى العنوان ، وكتبته ثم قرأته عليه ، كان الطبيب يسكن فى شارع الفراغة ، وقدرت أنى فى أقل من نصف ساعة سأكون مع الطبيب عند زهدى . ووضعت السماعة ، وانطلقت ارتدى ملابس الخروج ، أى ملابس تصادفنى . معتمدا على الباطو الذى يستر كل شيء ، وهبطت الى الجراج أسفل العمارة . ومن حسن حظى أن سيارتى كانت فى المقدمة ، واحتاج الامر الى زحزحة سيارتين من مكانهما ، ولم أنتظر السائس الذى استيقظ يفرك عينيه وقد وجدنى أقوم بالمهمة غير مكترث بوجوده . وانطلقت بالسيارة بأقصى سرعة حتى وصلت الى شارع الفراغة . ودسست يدى فى جيبى لاخرج الورقة التى دونت فيها العنوان فلم أجدها ، وارتبكت ، أوقفت السيارة وفتشت كالمجنون فى كل جيب ، فلم أعثر عليها ، ولم أستطع التفكير ، كل ما فعلته ، هو أن انطلقت بالسيارة الى بيت زهدى .

صاح تو :

- أين الطبيب ؟

قلت لاهثا :

- العنوان .. الورقة ضاعت ..

قال وهو يجرى الى حجرة زهدى :

- سأحضره لك .

وتبعته الى الحجرة ، كان زهدى راقدًا وقد رفع رأسه فوق  
مخدات عالية ، وكان فى وجهه ألم ، وفى عينيه شبه ذهول ، ولكنه  
ماكاد يرانى حتى عرفنى فقد تحرك سواد عينيه وأبتسم ابتسامة  
شاحبة .

قلت فى لهفة :

- سلامتك .. سيأتى الطبيب فوراً .

وفجأة سيطرت على تلك الهواجس الغريبة التى كانت تأمرنى  
فأطيع . وإذا بى أقول لزهدى وأنا أنظر فى عينيه :

- ابقى أنا معك يا زهدى .. ويذهب تو إلى الطبيب .

لأبد أن نظراتى كانت تحمل اليه معنى كامناً فى نفسى ، إذ كان  
يحدق فى عينى ، وفجأة ، لمحت شهاب القلق يلمع فى عينيه ، ونظراته  
تضطرب ، بينما صاح تو :

- كيف أذهب أنا ؟

قلت له وأنا أمد يدي بمفاتيح السيارة :

- خذ السيارة ..

قال :

- لا أعرف كيف أقودها ، سرعاتها خاصة ، وليست لى خبرة

بها ..

وهنا حرك زهدى يده متمتما ، ولم أسمع ، ولكن تو سمعه ،

وإذا به يصيح :

- لا يا زهدى بك .. هو الذى يذهب ، سأبقى أنا .

كان تو حاسما ، ورأيت الخوف يزداد فى عينى زهدى ، وأصابه  
المرتعدة فى يده الممتدة نحوى تكاد تدعونى بل تتوسل الى للبقاء ،  
ولكنى لم ألتفت اليه .. وصحت :

- لا يجب أن نتعطل أكثر من هذا .

وعدت الى سيارتى ، وذهبت الى بيت الطبيب ، وعندما عدنا ،

كان زهدى قد فارق الحياة .

فتح الباب ، كان مع تو مفتاح الشقة ، وقال ان منيرة فى حالة

سيئة .. وانها شرعت فى اجراء بعض اتصالات تليفونية ، فى بيوت اقارب لزهدي تعرفهم ، وجلس تو فى مواجهتى ، ورفع عينيه ناظرا الى ، وقال لى بصوت غريب :  
- انت الذى قتلتته يا استاذ « قتلتته بكلمتين » .  
قلت فى استرخاء كامل :  
- اجننت ياتو ..  
قال :

- اتدرى ما الذى حدث ؟  
قاطعتته بلهجة اتهام :  
- كان وحده معك ، وانت الذى اتصلت بى ..  
قال تو غير مهتم بما اثيره من اعتراضات :

- منذ اللحظة التى قلت له أنك تريد البقاء معه وذهابى ، انتابته المخاوف منى ، اتدرى انه حاول النهوض من السرير ليلحق بك ، قام فعلا ، وكلما اقتربت منه ، دفعنى بشدة ، كان مذعورا ذعرا بشعا ، لم اعرفه فى انسان من قبل ، كانى عزرائيل ، ولولا ان ازمته شديدة ، لكان هجم على وحاول قتلى ليتخلص منى ، كأنك قلت له انى سوف اقتله ..  
صمت :

- مستحيل .. ماهذا التخريف ياتو ؟ !  
قال فى تأكيد وحسم لايقبل المناقشة :  
- اقسم لك ان هذا هو ماحدث .. لم يكثرث بالازمة ، ولا بما يعانيه من آلام ، ولم يكثرث بكلام الطبيب ، ونهض ، وهو يعلم انه يقضى على نفسه بأى حركة .. وحاول ان يذهب الى باب الشقة ويخرج منها .. ولكنه ماكاد يقف على قدميه .. ويمد يده يدفعنى ، حتى انهار ، وارقدته على السرير ، وكان ينظر الى فى فزع . ولم اجد مفرا من الخروج من الحجرة ، وكلما اطلت عليه من الباب رأيتته ينظر فى اتجاهى منكمشا خائفا ، فاخفتى ، ثم اعود فاطسل بحذر ، فيلمحنى ، وفى آخر مرة ، صرخ ، ثم شهق .. فصاحت فيه من الخارج .. ان يطمئن ، وان الطبيب قادم بسرعة .. وظللت اتحدث ، ثم اطلت برأسى ، فلم اسمع له صوتا ، واقتربت منه ، فوجدته هامدا ، لا صوت له ، أو شخير أو شخير . كان متصلبا .. ومازالت فى عينيه نظرات الفزع ، انها مازالت فى عينيه ، ألم تلاحظها عندما فتح الطبيب جفونه ، رأيتها باقية كما هي ، لا اعرف كيف لم



بلاحظها الطبيب ، انها نظرات مخيفة لم احتملها فأغمضت جفونه ،  
وعلمت انه مات .

همست :

- هذا غريب ..

قال تو فى اصرار :

- انت السبب ..

همست :

- لا داعى للاستمرار فى هذا التخريف .

قال :

- لقد وضعتنى فى موقف لا يحتمل .

رفعت صوتى :

- أما زلت مصرا ؟

قال تو :

- أنا واثق مما أقول .. ولكنى لا افهم لماذا ..

والتفت الى والقى بسؤال :

- اكنت تريد منى أن أقتله ؟

هتفت فزعا :

- مستحيل - وما فائدة مثل هذا التصرف الاحمق .

قال تو فجأة :

- على أية حال أعدك بأنى لن أحدث أحدا فى هذا الموضوع .

حاولت أن أفتح فمى ، وأقول له .. لن يصدقك احد ، لو اهتمتنى  
فستدور الاتهامات عليك أنت ، لانك ستفضح نفسك ، وسيعلمون  
أنك ابن الرجل الذى مات على يد زهدى فى السجن .. حاولت أن  
أخيفه ، أو أخدعه ، ولكنى لم أنبس بكلمة .. وبعد لحظات ضربت  
بيدى على مسند المقعد ونهضت . وغادرت المكان دون أن أقول لتو  
كلمة واحدة ، ولم يقل لى كلمة واحدة .

هل أنا قاتل زهدى .. هل هذا معقول .. لقد كان الرجل  
يتوقع أن يدبر له تو شرا ، صارحنى بأنه يخشاه ، ألم يكن يخشاه ،  
ألم يقل لى أنه تعلم من مهنته أن يتوقع كل الاحتمالات ولا يستبعد  
أحدا منها ، ما أدرانى أن تو يكذب ، وأنه هو الذى انتهز الفرصة  
وهجم على زهدى وهو يعانى فى أزمة ، وجعل يهزه ويخيفه حتى  
قتله ، انها جريمة من الصعب اكتشافها ، سيقدر كل أطباء العالم  
أن الرجل مات بقلبه المريض ، أن رسوم القلب التى أجروها له تؤكد

أن العطب موجود وشديد . وانه قلب لا يصلح . . لقد كان تو ماكرا بما فيه الكفاية ، ألم يحدثنى فى بداية لقائى به عن رغبته فى أن يقول كش مات لخصومه . ومن هم خصومه المباشرون فى هذه الحياة غير زهدى وشوكت ، أغلب ظنى أن شوكت لو كان مازال حيا لابد أن يقابل تو فى جنيف أو حيث يكون ليلقى على يديه انتقاما من نوع آخر فريدا فى نوعه . . لا . . لن أسمح لتو أن يهزأ بى ، ويتهمنى بارتكاب الجريمة التى ارتكبها هو . ولكن هل أنا واثق مما أقوله ، أليس من المحتمل أن زهدى هو الذى انهار ، أمام مخاوفه التى كان يستبعد لها مرضاة لله . كان يتبنى تو ليرضى الله عن ابنه ، ويفتح أمامه السبل ولكنه وهو يواجه الموت لم يعد يعنيه الا نفسه ، وأحس أن الله يتخلى عنه ، فخاف وهجمت عليه الوسوس كالشياطين الفتاكة قدمته . . كان يحمل جرثومة هلاكه فى نفسه ، وهى التى قتلت . .

ومع ذلك ، فمازالت صيحة تو . . « قتلت بكلمتين » تدوى فى أذنى ، لقد كانت قوى أكبر منى ، تكمن فى أعماقى ، هى التى دفعتنى الى أن أعرض على زهدى البقاء معه ، وانظر اليه ، وهو فى قمة ضعفه ، لأقول له انى خائف مما قد يتعرض له من بقائه وحده مع تو . . بل لعلى قلت له بنظراتى وأنا لا أعى خطورة ما أقول . . ان سبب ما يعانى من نكسة . هو تصرفات لتو ، لعله خلط فى الادوية ، أو ارتكب شيئا ضارا به . . لقد حذرته ونبهته الى مخاوفه فى اللحظة التى لا يستطيع أن يدافع فيها عن نفسه ، فانهار ومات أو انتحر . . ولكنى أعود وأسأل نفسى . . هل هذا معقول . . ألم يطلبنى تو بنفسه ما الذى دفعه الى مخاطبتى فى التليفون .

عندما اختفى النعش فى السيارة الكبيرة السوداء ، التى ستحمله الى مقره الاخير كان تو يقف بجواره ، كنت لم أراه منذ تركته فى فجر اليوم .

نظر الى وقال :

— أنا آسف . . لا تزعل منى . .

فمددت يدى وربت على كتفه . ولا بد ان من راونى ظنوا انى أواسيه فى موت أبيه زهدى ، كان أصغر الموجودين . وكان يصلح لأن يبدو فى نظر عابرى الطريق الذين ينظرون الينا فى فضول كابين المتوفى .

وهمست فى أذنه :

— كيف عرفت أنه قاتل والدك ؟  
قال هامسا بدوره :  
— بعد النوبة الاولى .. اعترف لى .. وبكى ..  
سألته :  
— وماذا فعلت ؟  
فلوح بيده ودموع قى عينيه .. وقال :  
— بكيت ..  
وانطلق مبتعدا .. يعبر الطريق فى اتجاه بيت زهدى القريب  
ن المسجد .  
وأختفى تو ، بعد الجنازة ، ولم يعد الى النادي ، وانقطعت أخباره  
لم يحضر ليقبض مكافأته الشهرية .. وأبته أخيرا ، فى شارع  
سفية زغلول . وكنت على الرصيف الآخر .. فناديت عليه بأعلى  
سوتى .. واكتفى بتحيتى من بعيد .. أشرت له أن يقف . وجاء  
سوته معتذرا .. وهو يجرى .  
— عندى موعد هام فى فندق فلسطين .

تمت

روايات الهلال تقدم

## الشمس العارضة

تأليف :  
إسحاق عظيموف

ترجمة :  
محمد جلال عباس

تصدر : ١٥ يناير ١٩٨٨

الكويت: السيد 'عبدالعال بسيوني زغلول  
الصفاء - ص . ب رقم ٢١٨٢٢  
13079 - تليفون - ٤٧٤١١٦٤

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

اشترى  
في  
روايات  
الهلال

## هذه الرواية

« وعدت انظر في اتجاه « تو » وفي صدرى مشاعر مختلفة من الفضول والحذر ، وانا احاول ان اجد فى مظهره ما ينبئنى عن حقيقة مخبره ، وان كنت اعلم ان مثل هذه المحاولة ميئوس منها ، وجعلت افكر فى هذا الوضع الشاذ الذى يتعرض اليه « تو » ويقبله ، فهاهو يبدو ، او يتظاهر ، وكأنه احد الاعضاء ، وهاهو يختلط بالشبان الذين هم من طبقة اجتماعية اخرى غير طبقته ، ومع ذلك فالجميع يعرفون حقيقة وضعه .. وهو انه ليس منهم .. وانه ليس عضوا ، بل موظفا واجيرا عندهم .. هل مثل هذا الوضع الغريب يصلح لرجل مخابرات ؟ لا اظن ، ومع ذلك فالامر غير مفهوم تماما ، اذ لماذا يقبل « تو » هذا الوضع ، وهل هو مضطر اليه ، او هو يتعمد ان يكون كذلك لغرض فى نفسه ، وخطر لى انى ربما اكون قد ظلمته بهذه الهواجس ، فقد يكون واحدا من ذلك الشباب الغريب الذى لا نستطيع ان نفهمه نحن ابناء الاجيال الماضية ، نعلمه واحد من تلك الطيور الغريبة التى تشق طريقها فى الحياة بوسائلها الخاصة المبتكرة التى لا تخطر على بال امثالىا .. اتكون الحياة قد دفعت به الى هذا المكان كمحطة يستريح فيها بعض الوقت ، قبل ان يطير الى مكان آخر يحط فيه . حقا ان هذا النادى اشبه بالمحطة ، بعض من فيه كهول ينتظرون القطار المسافر الى الحياة الاخرى ، وبعض من فيه شباب يتسكع فى انتظار قطار مسافر الى فرص اوسع فى الحياة . على اية حال ، قررت بينى وبين نفسى ان احذر من تو ، وان اتعامل معه بحرص اذا شاءت الظروف ان نلتقى ولا بد ان هذه الظروف سوف تنهيا يوما ما .

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)